كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

العدد: ٦٧ رمضان ١٤١٩هـ السنة الثامنة عشرة

القيم الإسلامية التربوية

والمجتمع المعاصر

عبد المجيد بن مسعود

عبد المجيد بن مسعود

* من مواليد مدينة وجدة ـ المغرب سنة ١٩٥٢م.

* حصل على الإجازة في علم الاجتماع من جامعة محمد ابن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ودبلوم مفتش التعليم الثانوي من المركز الوطني لمفتشي التعليم بالرباط.

* يعمل مفتشًا للتعليم الثانوي بالأكاديمية الجهوية لوزارة التربية الوطنية بوجدة في المغرب.

* عضو لجنة التأليف المدرسي (مادة التربية الإسلامية).

* له مجموعة قصصية بعنوان: «الأخْدود»، ومجموعة أبحاث منها: «مفهوم السلطة في ضوء المنظومة التربوية الإسلامية».

* له تحت الطبع كتاب بعنوان: «منظومتنا التربوية إلى أين؟»

بسم الله الرحمن الرحيم

القيم الإسلامية التربوية

والمجتمع المعاصر

عبد المجيد بن مسعود

الطبعة الأولى
رمضان ١٤١٩ هـ
كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٨م - كانون الثاني (يناير) ١٩٩٩م

عبد المجيد بن مسعود.
القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر.
الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٨م.
١٧٦ص، ٢٠ سم - (كتاب الأمة، ٦٧).
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الرقم الدولي (ردمك) :
أ. العنوان ب. السلسلة.

حقوق الطبع محفوظة
لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بدولة قطر

موقعنا على الإنترنت : www.islam.gov.qa

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها

كتاب الأمة
سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

صدر منه :

- **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية**

« طبعة ثالثة » - الشيخ محمد الغزالي

- **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**

« طبعة ثالثة » - الدكتور يوسف القرضاوي

- **العسكرية العربية الإسلامية**

« طبعة ثالثة » - اللواء الركن محمود شيت خطاب

- **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**

« طبعة ثالثة » - الدكتور عماد الدين خليل

- **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**

« طبعة ثالثة » - الدكتور محمود حمدي زقزوق

- **المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري**

« طبعة ثالثة » - الدكتور محسن عبد الحميد

- **الحرمان والتخلف في ديار المسلمين**

« طبعة ثالثة + طبعة إنجليزية » الدكتور نبيل صبحي الطويل

- **نظرات في مسيرة العمل الإسلامي**

« طبعة ثانية » - الأستاذ عمر عبيد حسنه

- **أدب الاختلاف في الإسلام**

« طبعة ثانية » - الدكتور طه جابر فياض العلواني

- **التراث والمعاصرة**

« طبعة ثانية » - الدكتور أكرم ضياء العمري

- **مشكلات الشباب: الحلول المطروحة والحل الإسلامي**

« طبعة ثانية » - الدكتور عباس محجوب

- المسلمون في السنغال ـ معالم الحاضر وآفاق المستقبل

« طبعة أولى » ـ الأستاذ عبد القادر محمد سيلا

- البنوك الإسلامية

« طبعة أولى » ـ الدكتور جمال الدين عطية

- مدخل إلى الأدب الإسلامي

« طبعة أولى » ـ الدكتور نجيب الكيلاني

- المخدرات من القلق إلى الاستعباد

« طبعة أولى » ـ الدكتور محمد محمود الهواري

- الفكر المنهجي عند المحدثين

« طبعة أولى » ـ الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

- فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ عمر عبيد حسنه

- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر

« طبعة أولى » ـ الدكتور زغلول راغب النجار

- دراسة في البناء الحضاري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمود محمد سفر

- في فقه التدين فهماً وتنزيلاً

الجزء الأول والثاني « الطبعة الأولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبدالمجيد النجار

- في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات ـ التوزيع ـ الاستثمار ـ النظام المالي)

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور رفعت السيد العوضي

- النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية ـ دراسة مقارنة

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد محمد كنعان

- المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبد العظيم محمود الديب

- مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ نخبة من المفكرين والكتاب

- مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- الصحوة الإسلامية في الأندلس

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور علي المنتصر الكتاني

- اليهود والتحالف مع الأقوياء

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

- الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ منصور زويد المطيري

- النظم التعليمية عند المحدثين

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ المكي أقلاينة

- العقل العربي وإعادة التشكيل

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور عبد الرحمن الطريري

- إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور يوسف إبراهيم يوسف

- أسباب ورود الحديث

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور محمد رأفت سعيد

- في الغزو الفكري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

- **قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي**

الجزء الأول والثاني ، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر - الدكتور أكرم ضياء العمري

- **فقه تغيير المنكر**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر - الدكتور محمد توفيق محمد سعد

- **في شرف العربية**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور إبراهيم السامرائي

- **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ برغوث عبد العزيز بن مبارك

- **الإسلام وصراع الحضارات**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد القديدي

- **رؤية إسلامية في قضايا معاصرة**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عماد الدين خليل

- **المستقبل للإسلام**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد علي الإمام

- **التوحيد والوساطة في التربية الدعوية**

الجزء الأول والثاني ، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ فريد الأنصاري

- **الإسلام وهموم الناس**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ أحمد عبادي

- **التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد الحليم عويس

- **عمرو بن العاص.. القائد المسلم.. والسفير الأمين**

الجزء الأول والثاني ، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - اللواء الركن محمود شيت خطاب

- **وثيقة مؤتمر السكان والتنمية.. رؤية شرعية**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور الحسيني سليمان جاد

● في السيرة النبوية.. قراءة لجوانب الحذر والحماية

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور إبراهيم علي محمد أحمد

● أصول الحكم على المبتدعة عند شيخ الإسلام ابن تيمية

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد بن عبد العزيز الحليبي

● من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ عبد الله الزبير عبد الرحمن

● عبد الحميد بن باديس رحمه الله وجهوده التربوية

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ مصطفى محمد حميداتو

● تخطيط وعمارة المدن الإسلامية

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ خالد محمد مصطفى عزب

● نحو مشروع مجلة رائدة للأطفال

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور مالك إبراهيم الأحمد .

● المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور سالم أحمد محل

● من فقه الأقليات المسلمة

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الأستاذ خالد عبد القادر

● الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد المجيد السوسوه الشرفي

● النظم التعليمية الوافدة في أفريقيا.. قراءة في البديل الحضاري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور قطب مصطفى سانو

● إشكاليات العمل الإعلامي.. بين الثوابت والمعطيات العصرية

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محي الدين عبد الحليم

● الاجتهاد المقاصدي.. حجيته.. ضوابطه.. مجالاته

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور نور الدين بن مختار الخادمي

قال تعالىٰ :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨
قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾

(الشمس : ٧–١٠)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، خلق الإنسان على الفطرة السوية، وكرمه على سائر خلقه، فمنحه حرية الإرادة وأهلية الاختيار، حيث زوده بقابلية التوجه إلى الخير، وبيّن له سبيله وعاقبته، عن طريق هداية النبوة وإدراك العقل، وحذره من الشر ونوازعه وما يترتب عليه من سوء العاقبة والخسران المبين، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس: ٧-١٠)، فجعل التزكية الموصلة إلى الفلاح من إرادة الإنسان وفعله، كما جعل التدسية المفضية إلى الخيبة والضلال من فعله أيضًا، وبذلك تصبح معركة التزكية والتدسية هي ميدان الفعل التربوي في مسيرة الحياة.

والصلاة والسلام على النبي المربي، الذي بعثه الله في الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فكان الرحمة المهداة، الذي وضع عن البشرية إصرها والأغلال التي كانت عليها، وقدم للإنسانية جيلاً ما يزال يشكل الأنموذج والمثل لكل المربين والمصلحين والسائرين على طريق التربية والإصلاح والتطوير والتغيير والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

وبعد:

فهذا كتاب الأمة السابع والستون: «القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر» للأستاذ عبد المجيد بن مسعود، في سلسلة «كتاب الأمة» التي يصدرها مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، مساهمة في تزكية المسلم وإحياء وعيه برسالته الإنسانية واسترداد دوره في سعيه لإلحاق الرحمة بالناس، وذلك بحسن تنشئته وتحريره من العبودية لغير الله، وقيامه بأعباء الاستخلاف الإنساني وإقامة العمران البشري في ضوء منهج الله وسننه في الحياة والأحياء، ومحاولة التحول بالعملية التربوية والمعرفية من حالة التلقين والمحاكاة والتقليد الجماعي وتغييب العقل، إلى ممارسة التفكير والاجتهاد، والإبداع، والمناقشة، والحوار، والمثاقفة، والتجديد والتغيير، والتوجه صوب التخصص في شعب المعرفة جميعاً، وإعادة بناء العقل الجماعي، في ضوء هدايات معرفة الوحي ومرجعية القيم الإسلامية في الكتاب والسنة.

ذلك أن العقل هو مناط التكليف ومحل الوحي.. وهداية الوحي هي التي رشدت العقل ومنحته مفاتيح قراءة الكون والحياة منذ النشأة الأولى، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:٣١)، كما منحته القيم الضابطة التي تؤطر أنشطته وسعيه الإنساني في المجالات المتعددة، فكان العقل المسلم الذي جاء ثمرة لهدايات الوحي،

عقلاً يقظًا واعيًا، مسؤولاً، غائيًا، تعليليًا، تحليليًا، برهانيًا، استقرائيًا، استنتاجيًا، يستكشف العلل والمقاصد ويتعرف على الأسباب ويدرك أن الله سبحانه وتعالى لم يخلقنا عبثًا، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:١١٥) ، وأنه ما من شيء في الوجود، إلا وله علة وسبب، وتحكم مسيرته سنة وقانون، ويسير إلى هدف وغاية.. وما لم يدرك العقل ذلك ويتحقق به، يصبح صاحبه كلاً معطلاً يصعب عليه التعامل مع الحياة والأحياء، وتغيب عنه مفاتيح عالم الشهادة، ويفتقد القدرة على تسخير ما هيأه الله له، ويعجز عن حمل أمانة المسؤولية التي عجزت السموات والأرض والجبال عن حملها ، وحملها الإنسان، لأنه المخلوق الوحيد الذي كُرم بالعقل، ومُنح ملكة الإرادة وحرية الاختيار، فكان ذلك سببًا في تسخير السموات والأرض والجبال له، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية:١٣).

لذلك نقول: لا مكان في العقل المسلم الذي تحقق بمعرفة الوحي للإيمان بالمصادفة، والعشوائية، والخوارقية، ولا مجال عنده لانتفاء الأسباب وافتقاد الغايات.. فالملاحظة والاختبار والتعرف إلى كنه الأشياء وقوانينها التي تحكمها هو تكليف شرعي، وهو سبيل النمو والارتقاء الإنساني والكشف العلمي ورؤية الآيات في الأنفس والآفاق، وزيادة الوعي بالحياة، والشعور بالحاجة الملحة إلى معرفة الحق الذي

يوصل إلى الأمن الذي يتأتى من الإيمان بخالق الحياة.. قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣).

بل لقد جعل الله السنن والقوانين التي تحكم الحياة والأحياء مطردة لا تتبدل ولا تتحول، شأنها في ذلك شأن القوانين التي تحكم الوجود الكوني المادي وإن دقت وخفيت، وصعب أو تأخر اكتشافها.. لذلك طلب الإسلام من العقل استيعاب هذه السنن والأسباب بعد أن شرعها له وخاطبه بها، وناط اكتشافها به، وجعل التعامل معها غاية التكليف ومناط التفكير، ودلل على اطرادها وفاعليتها بالعبرة التاريخية، فقد لا يتسع عمر الإنسان لبلوغ نتائجها أو التحقق بعواقبها.

وبالإمكان القول: إن القيم الإسلامية والرؤية التربوية الإسلامية استطاعت بعد المجازفات والتجارب التاريخية المريرة التي عانت منها البشرية، أن تنقذ العقل المسلم والوعي المعرفي بشكل عام من الانشطار الثقافي والتربوي، وخلصت هذا العقل من أن يكون محلاً للصراع والتبعثر والتفتت بين الوحي والعقل، أو بين القدر والحرية، بين المعجزة كسنة «خارقة» وبين السبب «كسنة جارية»، وتجعله يدرك أن السنة الخارقة أو المعجزة هي في الحقيقة دليل على وجود الله وقدرته، وهي من بعض الوجوه دليل على اطراد السنن الجارية والأسباب الموصلة إلى النتائج، لأن القدرة على خرقها لا تكون إلا من الذي خلقها.

فالمعجزة هي خرق الأسباب والقوانين الجارية، وإنما جاءت للتدليل على صدق النبوة ولتؤكد على قدرة الله خالق الأسباب، وأنه وحده القادر على خرقها وحصول النتائج بدون وجود مقدماتها، وأن الله الذي دلل على صدق النبوة بالمعجزات، هو الذي أراد جعل الأسباب والقوانين التي تحكم الحياة والأحياء هي أقداره الموصلة إلى تحقيق نتائجها، وتعبد الإنسان بكيفية التعامل معها، واعتبر ذلك غاية التكليف وتحقيق العبودية، ورتب على ذلك الثواب والعقاب.

لذلك جعل الله السير في الأرض، والتبصر بأحوال الأمم الماضية، والتعرف إلى مسالكها وممارساتها، والإصابات التي لحقت بها، والاهتداء إلى أسباب سقوطها، من الفروض التربوية، وبشكل أعم من الفروض الحضارية، ذلك أن التعرف على الأسباب، والبحث في العلل والغايات، والتفكير بالسنن والأسباب التي تحكم الأنفس والآفاق، والتدريب على ذلك في المؤسسات التعليمية والتربوية والمختبرات التاريخية، هو السبيل إلى امتلاك القدرة على التسخير الذي كلفنا الله به، والتغيير الذي ناطه بإرادتنا: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١)، وتحقيق التنمية والوقاية الحضارية التي أرادها لأمة الرسالة الخاتمة، والخروج من عملية التلقين والتقليد والتحجر والتيبس والجمود على حال تفضي إلى العطالة والخروج من الحياة.

لقد زود الله الإنسان بالقابليات التي تكاد تكون مطلقة للنمو والنهوض: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ (النحل: ٧٨)، ومكنه من الأدوات المعرفية التي ترقىٰ بوعيه واستيعابه وتأهيله للقيام بمهمته، وتحقيق إنسانيته، كما حدد له المجالات المجدية للبحث والتفكير والنظر، وجعل عالم الشهادة من الوسائل المعينة على إدراك عالم الغيب، حماية لملكاته من التبعثر والهدر والضلال، وجعل تشغيل العقل والنظر في نفسه ومن حوله وما حوله والتعرف إلى العواقب ورصد النتائج، هو سبيل المعرفة الحقيقية والإيمان الصحيح وتحقيق اليقين، وجعل التعليم وتحصيل المعرفة من الفروض العينية، واعتبر ذلك واجبًا عليه وليس حقًا له فقط، وأثاب على ذلك التفكير وممارسة النظر وبذل الجهد حتى ولو كان اجتهاداً خاطئًا، لأن الخطأ في النهاية هو إحدى الطرق الموصلة إلى الصواب.

لقد نعىٰ الوحي على المعطل لعقله وتفكيره، وأسقطه إلى درك الجمادات، واعتبره كالذي ينعق بما لا يسمع، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٧١).. فالفقه والوعي والتدين السليم، لا يتحصل إلا بتشغيل العقل وكسب المعرفة.. كما نعىٰ على الذين تُنَشّأ شخصياتهم من خلال التقليد والموروث

الاجتماعي دون اكتساب المعايير التي تمكن من اختبار هذا الموروث والحكم على صلاحه أو فساده، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠).

وبذلك فك الإسلام قيود التقليد، وحرر العقل من المسبق غير الصالح، ودفعه باتجاه الكسب المعرفي بعد وزنه وتمحيصه.

كما نعىٰ الإسلام على التقليد والمقلدين حتى ولو كانت عمليات التقليد والمحاكاة تدور في مجال الإيمان الحق، لأنه أراد أن يكون التدين والاعتقاد ثمرة اختيار واقتناع، وليس بسبب وراثة ومحاكاة وتعطيل ملكات.. ويكاد يجمع العلماء على أن إيمان المقلد لا يجوز، وفي هذا ما فيه من استرداد لكرامة الإنسان واحترام لعقله وتحقيق لإنسانيته وتكريم لآدميته.

وبذلك يتحقق لأول مرة في مجال التدين، أن العلم والتفكير وإيقاظ الوعي واكتساب العبرة طريق الإيمان، وأن الإيمان هو المحرض والموجه لاكتساب العلم والمعرفة، حتى إننا لنستطيع أن نقول: بأن الإسلام جعل الإيمان علمًا والعلم إيمانًا، وتجاوز آفاق العلم التجريبي وما وصل إليه من اليقينيات في المجال الإنساني، فتحدىٰ الإسلام بالعواقب والمآلات، ولم يتوقف عند حدود ترتب النتائج القريبة -والمعروف أن العواقب آكد، من الناحية العلمية والمعرفية، من النتائج

التي قد تشكل حالات طارئة وغير مستمرة- وبذلك تخلص الإنسان بالقيم الإسلامية أو الرؤية الإسلامية للتربية والمعرفة، من الفصام الثقافي بين العلم والإيمان، وبين التفكير والتلقين، بين الاجتهاد والتقليد، وانطلق المسلمون في مجال البناء التربوي والكسب المعرفي دون أية عوائق أو عقبات أو منغصات أو عقد موهومة بسبب التناكر مع معرفة الوحي.

ونقول بكل اليقين: إن التاريخ العلمي البشري فيما وصل إليه من الحقائق واليقينيات، لم يسجل إصابة واحدة على القيم والنصوص الإسلامية، وإنما كان سبيلاً ليقظة العقل وعودة الوعي واستئناف التوجه صوب الدين الصحيح، بما يحققه من الأمن واليقين.. فالارتقاء بالعلم وزيادة مساحة العلم والرؤية المعرفية، يتيح تبين الحق والوصول إلى اليقين والإيمان، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣).

فالكسب المعرفي بما يرتبه من تشريف في الدنيا وثواب في الآخرة، وبسبب عطاء القيم الإيمانية وقدرتها على تحديد مجالات البحث المجدية وتوجيه نتائج العلم لخير البشرية، وربط الجهود العلمية والتربوية بأهدافها، تتحقق إنسانية الإنسان، وإلا تحول العلم إلى وسيلة دمار وتفريق وبغي، ولحقت بالأمة علل التدين الحضاري والثقافي كحال الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ

ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ... ﴾ (الشورى: ١٤)، ذلك أن انفصال العلم عن الإيمان، سوف يؤدي إلى البغي والظلم.. وشواهد الإدانة من الواقع على توظيف العلم للبغي، أكثر من أن تحصى.

لذلك لم يقتصر الإسلام على التأكيد على تحصيل المعرفة، وإنما أكد على الالتزام بخلق وأدب المعرفة أيضاً، لما لذلك من أهمية تعادل الكسب المعرفي، قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ... ﴾ (يونس: ٣٩)، ونهى المسلم عن اتباع الظن والهوى، قال تعالى: ﴿ ... إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام: ١١٦)، وقال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (الفرقان: ٤٣)، وجعل المعرفة مرتبطة ببرهانها ودليلها، كما جعل البرهان دليل صدقها، وكان الطلب الخالد المربي للعقل: ﴿ ... قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (النمل: ٦٤).

كما جعل الإسلام الحكم على الشيء فرع عن تصوره وعلمه، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء: ٣٦)، وجعل الإنسان مسؤولاً عن حواسه نوافذ معرفته، ووسائلها، وجعله مسؤولاً عن تعطيلها وعدم تشغيلها، كما جعله مسؤولاً عن عدم الالتزام بعطائها، فقال تعالى: ﴿ ... إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦)، لذلك فالمسؤولية هنا مزدوجة،

مسؤولية عن التشغيل والتحريك والكسب المعرفي، ومسؤولية عن الالتزام بخلق المعرفة وأدبها وثمراتها.

ومن هنا ندرك لماذا جعل الإسلام أهل الخبرة والمعرفة محل السؤال والتعليم: ﴿.... وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر:١٤)، ﴿...... فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٤٣)، وضبط المسيرة العلمية بأهدافها، وكان دعاء الرسول القدوة ﷺ الدائب: «**اللهم إني أسألك علمًا نافعًا**» أخرجه مسلم في صحيحه. وكان يستعيذ بالله من علم لا ينفع، ويجمع في استعاذته من العلم الذي لا ينفع، القلب الذي لا يخشع والدعاء الذي لا يستجاب، لأن المحصلة واحدة، فهي جميعًا أشياء ووسائل ومسالك وممارسات لا خير فيها إذا كانت مقطوعة عن أهدافها وثمراتها.

وبالإمكان القول هنا: بأن الدين والإيمان الصحيح أو معرفة الوحي بشكل أخص، لا تقتصر على ضبط مسيرة العلم والمعرفة ومنحها الإطار المرجعي وحمايتها من الهدر والتبعثر والضلال وانفلات العلم عن أهدافه وتحوله إلى ساحة الظلم والبغي، وإنما هي أشبه ما تكون بالبوصلة التي تحدد الوجهة، ودليل التشغيل الذي يحرك الآلة ويحولها من السكون والتوقف إلى الإنتاج والعطاء، ويحدد الخلل الذي قد يلحق بها، ويكون قادراً على الهداية إلى الحل وتصويب الخلل.

وتشتد الحاجة إلى ضبط العلم بأهدافه، والتزام المعرفة بآدابها

وأخلاقها وتوجيهها الوجهة الخيرة لمحاصرة الظلم والحيلولة دون البغي أكثر فأكثر في هذا العصر، الذي يشهد يوميًا تقدمًا علميًا وتراكمًا معرفيًا وثورة معلوماتية تجعل العلم والمعرفة هما قوة المستقبل الحقيقية، فالذي يمتلك العلم والمعرفة يمتلك المستقبل، بل يمتلك العالم.. فكيف له أن يتصرف فيه، ويصرف العلم إلى ساحات الخير؟!

هنا يأتي دور القيم التربوية، التي تضبط المسار وتحول دون البغي.

ولعل قضية الإيمان بالله سبحانه وتعالى، واهب القدرات، وخالق المؤهلات، والهادي إلى طريق الصواب، المقدر للسعي، المحاسب عليه، الذي لا تخفى عليه خافية، هي القضية الأهم في البناء التربوي، حيث ينمو الوازع الداخلي واستشعار المسؤولية عن الفعل، والرغبة في تخليص السلوك من الشوائب، ومحاولة الانضباط بخلق المعرفة وأهدافها المشروعة.

وقد تكون الإشكالية الحقيقية سواء في المجال التربوي أو في المجالات المعرفية الأخرى بشكل عام، هي في الخلط بين القيم والمبادئ كأطر ومرجعيات وضوابط وموجهات ومعايير متأتية من معرفة الوحي المعصومة الخالدة المجردة عن حدود الزمان والمكان، وبين البرامج والخطط والمناهج كجهود بشرية في محاولة اجتهادية لتنزيل القيم على الواقع، أو تقويم الواقع بها والتعامل معها من خلال الاستطاعات والإمكانيات المتوفرة. وهذه الاجتهادات بطبيعتها قابلة للمراجعة والخطأ والصواب،

والنجاح والفشل، والتغيير والتبديل والتعديل والنقد والنقض، وصوابها في عصر وقدرتها على إنتاج تربوي مقدور في ضوء ظروف مجتمع معين وزمان معين، لا يعني بالضرورة قدرتها على البناء التربوي في كل عصر ومجتمع، حسب تطور ظروفه ومشكلاته.

لذلك لا بد في الفعل التربوي والمعرفي من التفريق بين القيم والمبادئ، سواء من حيث طبيعتها ومصدرها وخلودها، وبين البرامج التي هي في نهاية المطاف اجتهاد بشري في إطار الوسائل والأساليب للتنشئة التربوية.

ولعل من الخير الكثير، الذي يعني أول ما يعني تكريم الإنسان واحترام عقله وإطلاق إرادته وبناء شخصيته الاستقلالية، أن تتاح لهذا الإنسان الحركة والتفكير والاجتهاد والحوار والنقاش والتشاور، للوصول إلى البرامج الأفضل، والجرأة على النقض والنقد للبرامج العاجزة عن الإنتاج، دون الشعور بالقدسية للبرامج، لأنها نوع من الفهم والاجتهاد والتدين الذي قد يخطئ وقد يصيب، والنقد والمراجعة لها لا يعني بحال من الأحوال النيل من الدين وقيمه المعصومة.

وإذا كانت أقدار التدين تنمو وتخبو، والإيمان يزيد وينقص، فلا بد للمعنيين بشأن التربية في كل عصر من فهم الواقع وحاجاته وإشكالياته وإصاباته، والتبصر بالأساليب التي تعتمد لإعداد النشء للتعامل مع هذا الواقع، بعيداً عن التربية النظرية أو البناء والرسم في الفراغ.. وتتلخص

العملية التربوية في كل عصر بالسؤال الكبير: لِمَ نعد النشء، وكيف نعده، وأين موقعنا من الفضاء الحضاري العالمي، وما هي المساحات التي يمكن أن نملأها في هذه المرحلة في ضوء إمكاناتنا وظروفنا؟

ولا بد لنا من الاعتراف بأن الجدل حول مفهوم التربية وتعريفها ودورها ووظيفتها في الفرد والمجتمع، قد يكون استغرق الجهد كله تقريبًا، بدل التفكير في آليات تطبيقها وتحقيق وظيفتها في الأمة.. وقد تكون هناك قيم كثيرة يثار الجدل حول مضامينها، وتتباين الرؤى حول مفهومها، وتغيب وظائفها عن الإنتاج المأمول في المجتمع.. وأخشى ما نخشاه أن يقع هذا الجهد الذهني المجرد، البعيد عن الواقع الميداني، في خانة الحظر الوارد في حديث النهي عن الجدال وكراهية: «**قيل وقال**»، فيضيع الأجر والعمر معًا وتضيع الأمة في متاهات الفلسفات الباردة المجردة، التي لا حظ لها من التطبيق.

ونستطيع القول: بأن عصور التألق الحضاري، توفرت لها وظائف هذه القيم والمفهومات، وإن غاب تعريفها وتأسيس مفهوماتها وتحرير مدلولاتها. لذلك كان جهد النبوة ومعرفة الوحي، تربية العقل وتوجيهه صوب التفكير السليم، وتحويل الفكر إلى فعل، وترجمة العقيدة إلى عمل وسلوك، وليس التفيقه والمضغ النظري للأفكار، فاستطاعت التغيير والإصلاح، وواجهت الجدل والفتن والقيل والقال بالمبادرة إلى حسم الأمر تربويًا في ساحة العمل والميدان، يقول

الرسـولﷺ: «**بادروا بالأعـمـال فـتنًا كـقطع الليـل المظلم، يصـبح الرجل مـؤمنًا ويمسي كـافـراً، يبيـع دينه بعَـرَضٍ من الدنيـا قـليل**» (أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة).

وقـد تكون بعض جـوانب المشكلة، في كـثـرة الكلام عن أهـمـيـة القيـم الإسلاميـة ودورها في البناء التربوي، تلك القـضيـة التي لـم يـتبق محل لأي تشكك فيها أو النيل من قدرتها، خاصة وقد أنتجت أجيالاً ما تزال تفـخر بها وتحاول محاكاتها الحضارات البشرية، دون أن يحقق الكلام عن هـذه القيم والحمـاس لها أقـداراً من الإنتـاج المأمول، الأمـر الذي يشكل أزمة ثقة، وقـد يعود على هذه القيم بالإجهاض لهـا من الداخل، على يد أصحابها المتحمسين لها، العاجزين عن تحويلها إلى منتج تربوي ملموس، ذلك أنه من الناحية التربوية تبقى العبرة بالإنتاج والقـدرة على تجاوز العـقبـات والمعوقات، ولـيس بالادعاء، حـتى ولو ساندها التاريخ.

لذلك فقد يكون التوجه صوب الإنتـاج المثيـر للاقتـداء، وتنزيل القـيم على الواقع، ووضع البـرامج والمناهج والوسـائل التـربوية المتطورة بحسب حـال المجتمع ومعـاناته ومشكلاته، هو السبيل والدليل على صدقية القيم وقدرتها على الإنتاج وتحقيق خلودها وعطائها المستمر.. من هنـا تتـعين ضـرورة العـودة لاخـتـبـار الخطاب والفـعل التـربوي في المجالات المتعددة والمراحل المختلفة، الذي ما يزال يغيب في الماضي ليقرر

«كيف كنا»، والاقتصار في ذلك على الأقدار المطلوبة للارتكاز التربوي الحضاري، والتحول الجاد إلى طرح إشكالية: «كيف نكون»، في ضوء مرجعية القيم التربوية الإسلامية والظروف المحيطة، والإمكانات المتوفرة، والواقع القائم بكل معاناته وإصاباته.

وهنا حقيقة قد يكون من المفيد التوقف عندها، وهي أن الكثير من الجهود الفكرية في المجالات التربوية وغيرها، لم تتجاوز مرحلة التأرجح والمراوحة بين الكلام عن القيم الإسلامية وعطائها الحضاري والتاريخي، مع العجز عن تطوير وسائلها ورؤيتها وأدواتها المعاصرة، وبين القيم التربوية الغربية ومحاولة دفع الافتتان بها، سواء كانت هذه الجهود في مجال المقارنة وبيان التميز في النظرية والإنتاج، أو كانت هذه الجهود في مجال المقاربة ومحاولة التفتيش عن المواقع المشتركة، لعل ذلك يعطي القيم التربوية الإسلامية بعض الثقة عند «الآخر» أو عند تلامذته في الواقع الإسلامي.

كذلك يمكن تصنيف الكثير من الدراسات التربوية الإسلامية في خانة المقاربة أو المقارنة للدراسات التربوية الغربية، لذلك جاء معظمها رهينًا للمناهج البحثية والمنظومة المعرفية الغربية، ولم تأت ثمرة لتطور المجتمع العربي الإسلامي، وتؤسس في ضوء حاجاته ومعالجة مشكلاته، فجاء تأثيرها وعطاؤها محدوداً في الواقع الإسلامي.

فعلى الرغم من إنشاء وتأسيس عشرات كليات التربية في

الجامعات العربية والإسلامية، فإن العملية التربوية والتعليمية ما تزال في تقهقر وتراجع مستمرين في المحصلة النهائية، مهما كانت مساحات التلاوم والتقاذف بإلقاء التبعات وإرجاع الأسباب.. ولعل السبب الرئيس لذلك أنها جاءت ضمن مناخ المناهج المعرفية ومعالجة قضايا المجتمعات غير الإسلامية.. لقد جاءت مبتورة عن مرجعيتها ومعادلة الأمة الاجتماعية، فكانت الأزمة، بل كانت الكارثة.

ومهما حاولنا الإلقاء بالتبعة على الآخرين في الميادين المختلفة، تبقى التربية هي المسؤول الرئيس عن كل الإصابات الواقعة للفرد والمجتمع، ذلك أن أدوات ووسائل التغيير والتأثير الأخرى، الإعلامية والثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، إنما تخرج أشخاصها وقادتها والقائمون على شأنها من رحم المؤسسة التربوية. وعلى هذا، قد يصدق عليها من بعض الوجوه قوله تعالى، حكاية عن إصابات الشيطان للإنسان الغافل: ﴿ .... فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ... ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

والعملية التربوية -كما هو متيقن- عملية مديدة، تتطلب جهداً متميزاً، وصبراً مقتدياً بأولي العزم من الرسل، وعزيمة ماضية، وتوكلاً على الله بعد هذا كله في إدراك النتائج وتحقيق الأهداف، قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ... ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وإدراكًا دقيقًا لمشاق الطريق، ومراجعة دائبة لوسائل العمل ومناهجه،

وإدانة جريئة لوسائل وأدوات التوصيل عند تخلف النتائج، وتقويمًا مستمرًا لكل مرحلة، وتعديلاً وتطويرًا في ضوء المشاهدات الميدانية والتغييرات الاجتماعية.. ذلك أن المشكلة التي تعاني منها العملية التربوية، وجميع العمليات التغييرية، أن الدنيا تتطور وتتغير، والمشكلات تتبدل، ونحن نصر على التعامل مع كل المتغيرات بالوسائل نفسها، وكأن الوسائل -وهي اجتهادات بشرية- اكتسبت صفة القدسية، سواء أكان ذلك بسبب نجاحها في حقبة معينة، أو بغفلة الإنسان، الّذي نقل القدسية من القيم والأهداف أو من النصوص الواردة في الكتاب والسنة، أو معرفة الوحي، إلى الاجتهاد البشري أو المعرفة البشرية.

وتأتي صعوبة العملية التربوية، بأن محلها وموضوعها الإنسان، بكل خصائصه وصفاته، بكل دوافعه وطبائعه ونوازعه وغرائزه، وأن وسيلتها الإنسان أيضًا، فهو الهدف وهو الوسيلة معًا.

لذلك نؤكد القول: بأن العملية التربوية عملية مديدة، فقد لا تظهر نتائجها ضمن إطار الزمن المحسوب لها، على أهمية الزمن ودوره في العملية التربوية، وقد نجتهد ونجتهد، لكننا لا نصيب المداخل الصحيحة للإنسان.. فلا بد أن ندين وسائلنا ونعاود الأمر، لأن جزءًا من الهداية يبقىٰ خارجًا عن طاقة المربي، يقول تعالى: ﴿ ..فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ... ﴾ (غافر:٧٧).. فقد

يقضي بعض المربين دون أن يدرك النتائج، وقد تتأخر النتائج، فالكثير من جيل خير القرون، جيل الصحابة، مضىٰ عليه أكثر من عشر سنوات، وبعضهم خمس عشرة سنة، يستمع إلى القرآن والبيان النبوي والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومع ذلك لم يؤمن ولم تتحقق الاستجابة إلا بعد حين.

وهنا لا بد أن نشير إلى أن العمر التربوي لا يقتصر على سن دون أخرى، على الرغم من تفاوت استعدادات التأثير وقابليات التلقي ، وإنما محله الإنسان منذ الولادة وحتى الوفاة. فالعملية التربوية محلها الإنسان، بكل تعقيداته وكينونته ومراحل حياته.

وهنا نرى قضية على غاية من الأهمية، وهي أنه على الرغم من أهمية الاستبطان في العملية التربوية، إلا أن الفوارق الفردية والظروف المحيطة والثقافة المتوارثة والمناخ الأسري، وكل العوامل الأخرى، تجعل الأمر من الصعوبة بمكان، لذلك يبقىٰ اختيار نوعية القيم التربوية التي تشكل المرجعية والوسائل والبرامج التربوية التي تتعامل مع التنشئة، هو المحور الأساس في العملية التربوية. فإذا كان الإنسان هو الذي يصنع التربية ويُصنع بها، أو ينشئ التربية وينشّأ بها، فإن الأمر يزداد تعقيداً.

والأمر الذي يقتضي معاودة الطرح، ليس على سبيل التكرار وإنما على سبيل التأكيد والإيضاح لأهميته في هذا السياق، هو أن المعارف في المجالات الاجتماعية والإنسانية عامة وعلى رأسها المعارف التربوية،

على الرغم من كل ما يتوافر لها من الدقة والتمحيص أو الموضوعية والمنهجية، لا تخرج عن كونها معارف ظنية، بعيدة عن الحسم واليقين، لذلك نرى العلوم الاجتماعية والإنسانية عند كل الأمم وفي كل الثقافات مشبعة بمئات الرؤى والفسلفات والمذاهب والمناهج المتضاربة والمتناقضة والمتعارضة في الأمة الواحدة والزمن الواحد، وحتى في بعض الأحيان عند الإنسان نفسه، الذي يقتضي تطور فكره وعمره وكسبه تغيير نظرته للأشياء وحكمه عليها من وقت لآخر، لدرجة قيل معها: بأن الإنسان الذي يراجع وينظر فيما رآه دون تعديل أو تطوير أو تبديل، فذلك يعني توقف عقله عن النمو، وتجمده عن الامتداد والنظر.

وإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان الإنسان ابن بيئته التربوية إلى درجة يصعب عليه الانفكاك عنها أو الانفلات منها، لأنه تشكل بها، وإذا كانت معارفه ومكتسباته ظنية لا ثقة فيها، فمعنى ذلك أنه تربوياً لا بد له من قيم تربوية تحقق له عملية انتشال من خارج نفسه ومعارفه وبيئته التربوية.. لا بد له من قيم ومعارف ترتكز إلى اليقين والثبات، وهذا الأمر لا يتأتى إلا من معرفة قادمة من خارج نفسه وظروفه وبيئته.. لا بد له من معرفة يقينية يطمئن إلى مصدرها ويؤمن به، ليستيقن بها، ويستبين طريق الهدى من خلالها، وهي هنا معرفة الوحي المعصوم في الكتاب والسنة، التي توافرت لها شروط النقل المعروفة، فهي يقينية ومعصومة ومصدرها الرب المربي، الذي خلق

الإنسان، وهو أعرف بدوافعه ونوازعه وطبائعه وخصائصه . . وهي بطبيعتها ومصدرها، تبقى بعيدة عن التحيز والتأثر بالإنسان، بعيدة عن أهوائه وشهواته وميوله وعصبياته، قال الله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (تبارك:١٤).

ويكفي هنا أن يقوم الإنسان بمقارنة أو مقاربة بين عطاء النبوة العملي في مجال التربية أو التغيير، وعطاء الفلسفة المنفلتة عن النبوة، التي ترتكز على المعرفة البشرية وحدها وما أورثته من التبعثر والضياع والضلال وعدم الاستقرار واليقين.

لذلك نقول: بأن معظم دعوات الإصلاح والتغيير والتربية، لم تستطع فك قيود التخلف، أو بتعبير آخر الانفكاك عن الأزمة، وإنما استمرت في الجريان بفلكها، لأن ثقافة التغيير أو تربية التغيير جاءت من إنتاج ثقافة التخلف نفسها، والإنسان ابن ثقافته وابن بيئته، لذلك لا بد من عملية انتشال -كما أسلفنا- من خارج الأزمة، وذلك عن طريق قيم النبوة، لأنها تأتي من خارج الحالة الثقافية، إضافة إلى ما يتحقق لها من اليقينية والتجربة التاريخية الحضاريةالتي تمنح الثقة. فمعرفة الوحي بالنسبة للعلوم والمعارف الإنسانية والاجتماعية تتحقق بالقطع واليقين، مثلما تتمتع التجربة المعملية في العلوم التجريبية أو التطبيقية باليقين المشاهد، وبذلك تكون بمثابة سفينة النجاة من الناحية التربوية.

وبعد:

فإن الكتاب يعتبر اجتهاداً مقدراً في محاولة لإعادة النظر في أنساق القيم التربوية التي توجه السلوك، بعيداً عن التصورات التي أدت إلى الأزمة التربوية، أو التي ما تزال تنطلق منها، وتدور في فلكها، واستلهام التراث أو استشراف الماضي للإجابة عن أسئلة الحاضر، ومعالجة مشكلاته، والنظر في كيفية تنزيل القيم التربوية الإسلامية على الواقع، كسياسة ومناهج ووسائل تستوعب الحاضر وتحدد الموقع المناسب للإقلاع من جديد، في إطار تصويب الخطوة وضمن الإمكانات والاستطاعات المتاحة، انطلاقاً من مرجعية معرفة الوحي التي تشكل دليل العمل وتحدد الأهداف وتمنح اليقين.

ذلك أن سمة الخلود في القيم التربوية الإسلامية المجردة عن حدود الزمان والمكان، تعني القدرة على الإنتاج في كل زمان ومكان، وامتلاك القدرة على توليد رؤى ووسائل ومناهج تربوية قادرة على انتشال الإنسان من أزمته، وتخليصه من الصراع والانشطار الثقافي، وتطوير خصائصه وصفاته، واستشعار مسؤوليته تجاه نفسه وأمته والبشرية جمعاء، وقدرته على الإفادة من المعارف البشرية في المجالات المتعددة في ضوء معايير معرفة الوحي التي تؤكد على التزام المنهج العلمي في النظر والاستدلال والكشف والملاحظة والبرهان، كما تضبط مسيرته العلمية بأهدافها ومقاصدها الخيرة.

ولعل من أهم المشكلات التي ما نزال نعاني منها، أن العطاء التربوي في الواقع الإسلامي، جاء في معظمه صدى للرؤى التربوية الغربية، واستنطاق القيم التربوية الإسلامية في المجالات التي طرحتها، سواء في ذلك من سلك منهج المقاربة أو حاول تحقيق أقدار من المقارنة، بعيداً عن حاجات الأمة الحقيقية وواقعها وأزمتها التربوية.

كما أن معظم الكتابات أيضًا، إنما جاءت في إطار التشخيص وبيان الأمراض، والامتداد أحيانًا إلى دراسة الأسباب، إلى جانب رصد الآثار.. والقليل، القليل جداً منها، الذي حاول وصف الدواء وبناء سبيل الخروج من الأزمة.

وقد تكون ميزة هذا الكتاب، أنه قدم مسحًا أو رصداً لوجهات النظر المتعددة، مما يتيح للقارئ والباحث بعض النوافذ، التي تمكنه من رؤية المصادر والمراجع والوجهات المتعددة، ليكون في صورة الإنتاج التربوي وتقويمه وتحديد المواقع المطلوب ولوجها ومعالجتها، للوصول إلى المستوى المأمول، وإبراز دور القيم التربوية الإسلامية، واسترداده من ثمّ في إنتاج النماذج الغائبة عن الواقع التربوي.

والحمد لله رب العالمين.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على السراج المنير، سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد..

فإن ما تعانيه البشرية من أزمات على مستوى الفرد والمجتمع، ومن ثم على مستوى الحضارة في مفهومها الواسع، تضرب بها في الصميم وتجعلها عرضة للقلق للساحق، ليدعوها بإلحاح واستعجال إلى إعادة النظر الشاملة في أنساق القيم التي توجه سلوكها وتغذي نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان. وقد زاد الإشكالية تعقيداً أن بعض الأصوات المنادية بإعادة النظر هذه، ظل أصحابها يدورون من حيث لم يحتسبوا في فلك التصورات التي أدت إلى الأزمة، فجاءت نظراتهم كليلة بعيدةعن الفهم الصحيح لطبيعة المشكل.

وإذا كانت السيرورة التي قادت الغرب إلى الدخول في هذا المنحدر الخطير، مفهومة لدى المتتبعين لأطوار الحضارة الغربية المعاصرة، فإن المواقف الشاذة التي اتخذها بعض أرباب الفكر ممن وقعوا تحت طائلة التغريب، تدعو إلى الاستغراب والعجب، فهم بطبيعة المشارب التي نهلوا منها والمفاهيم التي لُقّنوها على أيدي أساتذتهم الغربيين، عبروا عن نفس النظرة القاصرة المبتورة إلى التربية والحضارة، وقد كانوا في منجى عنها لو أنهم تحلوا بالأمانة للواقع

الحضاري للأمة التي ينتمون إليها، فجاءت جنايتهم على النشء جناية كبيرة لا تغتفر.

وإذا كان هؤلاء قد سدروا في غيهم وظلوا في عزلة عن مطامح أمتهم وأمانيها، فإن عدداً لا يستهان به منهم قد عادوا من جديد بعد أن اصطدموا بجدار الطريق المسدود، يفتشون في التراث عن مخرج عن الحيرة، وخلاص من رحلة العذاب.

والسؤال الذي أسعى إلى الإجابة عنه هو: ما هي القيم التي تحكم فكر هؤلاء المغتربين وتشكل مقياسهم في الحياة؟ وما هي الأسباب الكامنة وراء ذلك ؟ ثم ما هي طبيعة القيم التي بدأوا يحاولون الاقتراب منها من جديد؟ بعبارة أخرى، ما هي طبيعة القيم التربوية في المجتمع المعاصر؟ وما طبيعة القيم التربوية في الإسلام؟ وما سر جاذبية هذه القيم؟

منهج تناول البحث:

أما المنهج الذي سأستخدمه في تناول الموضوع والتعامل مع إشكاليته، فهو المنهج الوصفي التحليلي الناقد، الذي يعتمد التحليل والتفسير المنطقي القائم على الاستقراء والاستنتاج. وهكذا يقتضي مني الموضوع أن أقوم بوصف للقيم التربوية في المجتمع المعاصر، وتحليل لأسسها وأصولها الفلسفية التي منها تنطلق وعليها تعتمد،

واستشفاف آفاقها، والمدى الذي في وسعها أن تبلغه في تحريك الإنسان، والجوانب التي تستطيع تحريكها.

ثم أقوم كذلك بتناول القيم التربوية في الإسلام، سالكًا نفس الخطوات التي سلكتها مع القيم التربوية في المجتمع المعاصر، أي رسم الأسس الفلسفية والنفسية التي ترسو عليها تلك القيم، مع بيان وتحليل الطريقة التي تحدث بها وظائفها وتؤتي ثمارها، وطبيعة التفاعلات التي تجري بين عناصرها.

وما دام الأمر يتعلق بالمقارنة بين نسقين للقيم ينتميان إلى حضارتين مختلفتين في كل شيء، فسيكون من مقتضيات المنهج الذي سأطبقه، أن أفحص وأحلل عينات القيم التي سأعالجها، كلا في سياق البنية الكلية التي تنتمي إليها، متحاشيًا بذلك عمليات التعسف التي تصيب عنصراً من العناصر الفكرية عند فصله عن بنيته، وتقييمه وكأنه قائم بذاته لا جذور له ولا علاقة تربطه بعناصر البنية التي تشكل إطاره الحيوي، فلا يخفى على الدارسين مدى الخسارة التي أصابت البحث العلمي من جراء عمليات البتر هذه، فقد عملت في اتجاه معاكس لمطامح البحث العلمي في تحقيق القدر اللائق من الموضوعية، بما يؤدي إلى كشف الحقيقة بمختلف مكوناتها وعناصرها.

تحديد مفاهيم البحث

١ - تعريف الهدف وعلاقته بالقيم التربوية :

الهدف لغة هو المُشرف من الأرض وإليه يلجأ، والغرض توجه إليه السهام ونحوها.. كل شيء عظيم مرتفع (..) وتلتقي هذه الشروح في مفهوم الغرض والارتفاع والانتصاب، أي البروز والظهور.. أما اصطلاحًا فقد حدد بأنه: «ما انعقد العزم على إحداثه في المتعلم، من تحول في مستوى المعارف والمهارات والمواقف، بشرط أن يقع التثبت من حصول ذلك التحول إثر فترة من التكوين تحدد مسبقًا»[١].

وقد حصر رجال التربية الأهداف في أنواع محددة، تتناسب مع ما تتركب منه الشخصية الإنسانية من أبعاد من قبيل البعد العقلي والوجداني والسلوكي والأخلاقي، بحيث تتجاوب تلك الأهداف مع تلك الأبعاد، وتشكلها في قالب أو آخر.. وهكذا يمكن الحديث عن أهداف روحية، وأهداف عقلية، ووجدانية، واجتماعية، وأخلاقية. إلا أن هذه الأهداف لا يمكن أن تتحقق أو تأخذ محتواها إلا من خلال نظام من القيم، تتصل كل فئة منه بجانب من جوانب الشخصية الإنسانية لتشكلها -كما سبق القول- وفق نموذج معين.. وتلك القيم تعود بدورها في نهاية المطاف إلى إطار مرجعي شامل تستمد منه

---

(١) عبد العزيز يوسف، مدى إسهام النصوص الأدبية في تحقيق الأهداف التربوية، ص٦٦.

أسسها ومقوماتها. . وذلك الإطار المرجعي، هو ما يعبر عنه بالفلسفة التربوية، التي تعكس رؤية خاصة للكون والإنسان والحياة.

وحتى تكون العلاقة واضحة بين الأهداف والقيم التربوية، نضرب مثلاً يحدد العلاقة بين العنصرين المذكورين في الإسلام. . إن الأهداف في الإسلام تتنوع «حسب الأبعاد المختلفة التي يتكون منها الإنسان والمجتمع. وتتحدد هذه الأبعاد الإنسانية حسب نظرة الإسلام لها، فالإسلام ينظر إلى البعد العقلي وكيفية تنميته بالفكر والعقيدة، وإلى البعد الروحي وكيفية تنميته بالإيمان والعبادة والدعاء، وبالإخلاص في كل جهد بشري وإنساني يقوم به الإنسان في حياته، وإلى البعد النفسي وكيفية تحرير النفس من الهوى الإنساني الجانح إلى السوء، وكيفية ضبط الشهوات والنوازع السيئة فيها حتى تستقيم هذه النفس وتصفو بإيمانها بالله وباطمئنانها إلى خالقها ومسيِّر أمرها. وتنمية النفس بهذه الوسائل، فيه تمهيد لبناء الخلق في الإنسان وإرسائه على أساس من الخيرية والإيثار وحب الناس والإخلاص لهم والتعاون معهم»[1].

إن العلاقة بين الأهداف والقيم التربوية علاقة وطيدة، بحيث إن الأهداف تستمد مضامينها من معين القيم التربوية التي تكون بهذه المثابة عبارة عن اللحمة والسدى بالنسبة للأهداف التربوية.

---

(١) محمود السيد سلطان، الأهداف التربوية في إطار النظرية التربوية في الإسلام، ص٨٨.

٢- تعريف القيمة:

قبل القيام بتعريف هذا المصطلح، أشير إلى أن الدراسة العلمية لمفهوم القيمة، تجري ضمن خطين متوازيين هما:

١- المنظور الفلسفي التجريدي، الذي يجعل نصب عينيه ضبط وتحديد الخصائص البنائية للقيم، أي معناها العام وخصائصها التجريدية[١].

٢- المنظور الإجرائي، ويهدف إلى تحديد الخصائص الوظيفية للقيم، أي وظائفها وكيفية قياسها[٢]. يعرف "نديم علاء الدين" القيمة بأنها: «حكم يصدره الإنسان على الأشياء، وينبع منه الاعتراض والاحتجاج على الوجود كما هو قائم ومفروض، ومن سعي الإنسان لتحويل هذا الوجود وفق ما ينبغي أن يكون، ولذلك فإن القيمة مفهوم له امتداد يطول مختلف مجالات نشاط الإنسان، ويتعدد تبعًا لفاعليته. والقيمة نظراً لهذا التعدد، تصبح إمكانًا، بسبب تنوع القيم وتنوع الفعل الإنساني»[٣].

ويعرف "كر لنجر" القيمة بأنها: تنظيم الاعتقادات والاختيارات

---

(١) انظر د. ضياء زاهر، القيم في العملية التربوية ص١١-١٢.

(٢) نفسه.

(٣) نديم علاء الدين، نظرية القيم في الفكر المعاصر، مجلة الباحث، عدد ٤٧/٣، ص١٢٣.

بالاستناد إلى مراجع تجريدية أو مبادئ، وإلى عادات سلوكية أو أنماط، وإلى غايات الحياة.. تعبر القيم عن أحكام أخلاقية، عن أوامر، عن تفضيل عادات وأنماط للسلوك. إننا نعتبر من قبيل القيم كل ما يهمنا بشكل أساس تحقيقه، وكل ما يهب معنى لحياتنا[1].

وواضح الطابع الذاتي الذي يهيمن على هذا التعريف وافتقاده للمعايير الموضوعية، فالحياة هنا مفهوم فضفاض.

ويعرف "بارسونز" القيمة بأنها: «عنصر في نسق رمزي مشترك يعتبر معياراً أو مستوى للاختيار بين بدائل التوجيه التي توجد في الموقف. فكأن القيم هنا تمثل معايير عامة وأساسية يشارك فيها أعضاء المجتمع وتسهم في تحقيق التكامل وتنظيم أنشطة الأعضاء»[2]

ويعرف "روكتش" القيمة بقوله: «هي معتقد واحد ذو خط في الدوام يحمل في فحواه تفضيلاً شخصياً أواجتماعياً، لغاية معينة من غايات الوجود، أو لضرب معين من ضروب السلوك الموصلة إلى هذه الغاية»[3].

إننا إذا أمعنا النظر في التعاريف الأربعة التي أمامنا، وجدنا عناصر

---

(١) معجم التقويم والبحث في التربية، جلبير دي لانشير: المنشورات الجامعية، فرنسا، ط١، باللغة الفرنسية، مادة قيمة valeur.

(٢) د. ضياء زاهر، القيم في العملية التربوية، ص١٩.

(٣) المرجع السابق، ص٢١.

مشتركة تتردد فيها، فالقيمة في التعريفين الأول والثاني تعبر عن نفسها في مختلف مجالات النشاط الإنساني، كما أنها من خلال التعاريف الأربعة عبارة عن مقياس أو معيار يمكن من الاختيار بين البدائل أو الغايات المتصلة بالوجود وبين ضروب السلوك المختلفة الموصلة إلى الغاية. وعنصر آخر مهم ورد في أحد هذه التعاريف للقيمة، وهي أنها «تسهم في تحقيق التكامل وتنظيم أنشطة الأعضاء».

ويرتبط بهذا العنصر كون القيمة تستند إلى مراجع تجريدية أو مبادئ، بمعنى أنها نسق ينطلق من رؤية فلسفية. ومن هنا فالقيمة انطلاقًا من هذه الموضوعات، تختلف من حيث طبيعتها وعمقها وإمكانياتها في التأثير لدى التحول إلى أنماط سلوكية في دنيا الواقع، وهذا ما سوف نتبين مدى مصداقيته من خلال الدراسة التي نحن بصددها، والتي تستهدف المقارنة بين نسقين من القيم التربوية: الإسلامي والمادي.

ولعل من المفيد أن نقول هنا: بأن هذه الخاصية الآنفة الذكر، أي خاصية الانطلاق من مراجع تجريدية، هي الحد الفاصل بين القيم والعادات، أي أن القيم تتفق «مع العادات والاتجاهات في كونها دوافع وطاقات للسلوك، تتأثر بالسياق الثقافي للمجتمع. على أن مصطلح العادة يشير في مفهومه السيكولوجي إلى حركة نمطية بسيطة تجلب

اللذة لمن يقوم بها، أي أنها مجرد سلوك متكرر لفرد معين بطريقة تلقائية في مواقف محددة، في حين أن القيمة تتضمن تنظيمات أكثر تعقيداً من السلوك المتكرر وأكثر تجريداً، كما أنها تنطوي على أحكام معيارية للتمييز بين الصواب والخطأ والخير والشر، وهذا كله لا يمكن توافره في العادة»[١].

ولا يفوتني المقام لذكر أن الفرق في الإسلام بين العبادة والعادة هو من قبيل هذا الفرق المذكور، على اعتبار أن العبادة تعتبر قيمة تجريدية بفضل النية التي تشترط فيها، وبدونها تصبح مجرد عادة ليس إلا.

تعريف التربية:

تفيد كلمة التربية لغة: التنمية، يقال تارة ربّاه أي نماه، ربى فلانًا أي غذاه ونشأه. ربى بمعنى نمى قواه الجسمية والخلقية، وتربى تنشأ وتغذى وتثقف[٢]. وقد عرف "د. جميل صليبا" التربية بقوله: «التربية هي تبليغ الشيء إلى كماله، أو هي كما يقول المحدثون، تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كمالها شيئًا فشيئًا، تقول: ربيت الولد إذا قويت ملكاته ونميت قدراته وهذبت سلوكه، كي يصبح صالحًا للحياة في بيئة معينة.. وتقول: تربى الرجل إذا أحكمته

(١) المرجع السابق، ص٢٥.

(٢) المعجم الوسيط، ج١، مادة ربّى.

التجارب ونشأ نفسه بنفسه»[1].

ويعرف "الدكتور محمد لبيب النجيحي" التربية بأنها: «عملية إعداد المواطن الذي يستطيع التكيف مع المجتمع الذي ينشأ فيه، ولذلك فهي تعمل على تشكيل الشخصية الإنسانية في أدوار المطاوعة الأولى تشكيلاً يقوم على أساس ما يسود المجتمع من تنظيمات سياسية واجتماعية واقتصادية، ولهذا كان لا بد للإطار الثقافي الذي يقوم عليه المجتمع من أن يحدد أبعاد العملية التربوية، واتجاهاتها، بحيث لا تخرج عن هذا الإطار إلا تطويراً له وتقدماً به في عملية زيادة آخذة بيد المجتمع نحو مستقبل أفضل.

وعلى هذا الأساس تحتل القيم مركزاً أساسيًا في توجيه العملية التربوية.. وفي هذا المجال لا تعمل التربية على المحافظة على التراث الثقافي ونقله من جيل إلى جيل بما في ذلك القيم الأخلاقية وحسب، وإنما تعمل على تطوير هذا الواقع الثقافي مقتربة بذلك بقدر ما تستطيع مما وضعته أمامها من تصور لما ينبغي أن يكون »[2].

ويتحدث "عبد الرحمن الباني" عن صناعة التربية أو فن التربية، الذي يهدف «إلى غرض سام، وهو أن نبلغ بالإنسان حد الكمال

(١) د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، ج١مادة تربية.
(٢) د. محمد لبيب النجيحي، في الفكر التربوي، ص ١٢١.

المناسب له »[1] . ويميز بين العلم والفن في هذا الصدد فيقول : « العلم يتعلق بكشف الحقيقة، والفن بمعناه الخاص يهدف إلى إيجاد شيء ذي قيمة، قيمة جمالية، قيمة أخلاقية، وبصورة أعم قيمة إنسانية تتجاوز المطالب الماديات النفعية (...) (لتحقق) ما يسميه علماؤنا –منهم الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) في كتابه الموافقات"– بـ (التحسينات)، ونسميه نحن الآن (الكماليات) . . « فالتربية بهذا المعنى إنما هي فن »[2] .

وقد عرفت الرابطة الدولية للتربية الجديدة" التربية، « بأنها تقوم على أساس تنمية القدرات الكاملة لكل شخص أكثر ما يمكن، وفي نفس الوقت كفرد وعضو في مجتمع أساسه التضامن، ولا يمكن فصل التربية عن تغير المجتمع لأنها تشكل قوة واحدة منه، ويجب إعادة النظر في أهداف التربية وطرائقها كلما تنامت معارفنا عن الطفل الإنسان والمجتمع »[3] .

أما "د. عبد الحميد الهاشمي" و"د. فاروق عبد السلام"، فقد عرفا التربية بأنها : « تنمية الإنسان في أبعاده الستة : الروحي، والبيولوجي، والعقلي والمعرفي، والانفعالي العاطفي، والسلوكي والأخلاقي، والاجتماعي، في إطار بعد مركزي هو الإيمان بالله

---

(١) عبد الرحمن الباني، مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، ص ٢٠-٢١.

(٢) نفسه.

(٣) ميالاريه، ١٩٨٤، ص٥.

وبوحدانيته، للوصول بالإنسان نحو الكمال، ضمن مجتمع متضامن قائم على قيم ثابتة[1].

وإذا تأملنا هذه المجموعة من التعاريف، وجدنا أنها تتضمن العناصر والمعاني التالية:

١ / التربية عملية تنموية تنصب على شخصية الإنسان لتبلغ به إلى كماله المناسب له.

٢ / إن الذي يمارس هذه العملية هو المجتمع من خلال ما يتوفر عليه من مؤسسات وقنوات متعددة.

٣ / إن هذه العملية تقوم على أساس التنظيمات الموجودة في المجتمع، والتي تعبر عن الإطار الثقافي العام.

٤ / لا يمكن للعملية التربوية أن تخرج عن هذا الإطار الذي توجهه قيم المجتمع المختلفة.

غير أن هذا الطابع العام والقاسم المشترك، يستثني منه التعريف الأخير: «تعريف ندوة خبراء أسس التربية» لأنه يحتوي على عنصر أساس وجوهري يتمثل في كون التنمية التي تنصب على الإنسان في كامل أبعاده، تجري في إطار بعد مركزي هو الإيمان بالله وبوحدانيته، وعلى أساس قيم ثابتة، الأمر الذي تخلو منه التعاريف الأخرى، وبالخصوص تعريف الرابطة الدولية للتربية الجديدة، التي تؤكد بشكل

---

(١) انظر البحث المقدم لندوة خبراء أسس التربية الإسلامية، سنة ١٤٠٠هـ، بمكة المكرمة.

صريح على إعادة النظر في أهداف التربية وطرائقها تبعًا لما يستجد من معارف ومكتشفات عن الطفل والإنسان والمجتمع، أي أن العملية التربوية بموجب هذا التعريف محكوم عليها بعدم الاستقرار، إذ هي تتأرجح بين وجهات النظر المختلفة التي تظهر بين الحين والآخر، بناء على معطيات جديدة حول العناصر الثلاثة المذكورة.

إذا كان هذا التعريف، يحكم على الأهداف التربوية بأن تعيش في دوامة من التقلبات التي لا تقف عند حد، فإن تعريف ندوة خبراء أسس التربية الإسلامية ينص على أن أهداف التربية ثابتة منذ البداية، لا يداخلها الشك. وانطلاقًا من هذه الأهداف التي تستند إلى بعد مركزي هو الإيمان بالله ووحدانيته، والنظام القيمي الشامل الذي ينسج حوله، يتم تحديد الوسائل المؤدية إلى تحقيق تلك الأهداف، وهي -أي الوسائل والأساليب- موجودة في القرآن والسنة النبوية الشريفة والسيرة الطاهرة، وما على علماء التربية إلا استخراجها وتبويبها، واستخدامها بالشكل الملائم والسليم.

وواضح أن الفرق الكائن بين هذا التعريف وتعريف الرابطة الدولية، هو فرق بين مفهوم إسلامي يقوم على الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، ويصطبغ بصبغته ويتصف بخصائصه المتميزة، كالوحدانية والإيجابية والتوازن والثبات، وبين مفهوم بشري ينطلق من الجهل بحقيقة الإنسان، ويفتقر بالتالي إلى تلك الخصائص -وهذا أمر طبيعي- إذ هو ينبني على علم محدود بظروف الزمان والمكان، وهي ذات تقلب مستمر.. وسوف نجد تعبيرًا واضحًا عن هذا الفرق الواسع

من خلال التحليل والمقارنة لأسس ومقومات النسق القيمي في الإسلام والنسق القيمي في المجتمع المعاصر (النسق المادي) . وسوف يكون اعتمادي في هذا البحث إذن -إن شاء الله- على هذين التعريفين، فعلى ضوئهما سأجري التحليل والمقارنة.

مفهوم المجتمع المعاصر : تحديد إجرائي للمفهوم :

إن مفهوم المجتمع المعاصر مفهوم واسع، يشمل العالم الراهن كله، بجميع تياراته ومذاهبه وفلسفاته، بدون استثناء. ومن هنا فإن الانسياق الحرفي وراء شمول اللفظ بأكمله يفرض استقراء كل أنواع وأنساق القيم، التي تتعايش أو تتصارع في هذا الخضم الهائل المتلاطم الأمواج الذي نسميه المجتمع المعاصر.

فكلمة المجتمع المعاصر وإن كانت في ظاهرها قد توحي بالتجانس في هذا المجتمع، فإن الواقع لا يصدق هذا الإيحاء. إلا أننا عندما نستعمل هذا المفهوم، غالباً ما تنصرف أذهاننا إلى السمة الغالبة على العصر -حتى الآن- وهي السمة المادية التي تتجلى في طغيان النزعة المادية على النفوس والمجتمع ومظاهر الحياة والحضارة، إلى درجة أنه حتى الأمم والشعوب ذات الماضي الحضاري العريق القائم على الدين (كالأمة الإسلامية) قد هيمنت عليها هذه النزعة، وما يبدو فيها من تجليات الروح الدينية فهو لا يعبر عن عمق الدين ومقتضياته في حياة الناس وممارساتهم. فاختياري لهذا المفهوم : المجتمع المعاصر، قائم على الحضور الفكري والسلوكي للمذاهب في حياة الناس.

تمهيد

لقد كانت مشكلة الإنسان ولا تزال، إحدى القضايا المهمة التي استأثرت -وتستأثر- باهتمام المفكرين والفلاسفة، يديرون حولها الجدل الصاخب حول طبيعته ونزعاته ومكونات نفسه.. وبكلمة موجزة، حول حقيقته وجوهره. ومن جملة التساؤلات الكبرى التي ولدت نقاشًا واسعًا في هذا الصدد، ما إذا كان ذلك الإنسان خيراً جبل معدنه على الخير ومحض له، أم أنه على العكس من ذاك مطبوع على الشر ولا ينضح إلا به؟

ولقد اختلف الفلاسفة وعلماء الأخلاق في الإجابة عن هذا السؤال، فمنهم من اعتبر الإنسان خيراً محضًا بفطرته، بينما يرى آخرون أنه شر صرف، ويترتب على هذا أن الإنسان في غير حاجة إلى عملية التربية والتهذيب، لأن هذه العملية لن كون مجدية بحال، «لأنه إن كان الإنسان خيراً فلا داعية إلى تخييره، وإن كان شراً صرفًا فلا نفع في محاولة تطهيره»[1].

وبطلان الموقفين السابقين ظاهر للعيان، وإلا «لما شرعت الشرائع، ولما قررت الأحكام، ولما ورد التكليف بالأعمال، ولما بين الحسن والقبح، ولما جاء الترغيب والترهيب... وحكمة الله أكبر من أن

---

(١) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق (من المقدمة)، ص (د).

يخصص للجنة قومًا وللنار آخرين، ويربط استحقاق الجنة بعمل واستيطان النار بعمل، بدون أن يجعل في خلقة الإنسان الأهلية لإحدى الجهتين»[1].

وإننا بتأملنا في كتاب الله، نجد الكثير من الآيات التي تبرز طبيعة الإنسان من حيث هو، قال تعالى: ﴿... وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ (الإسراء:١١)، ﴿..وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ (الإسراء:٦٧)، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ (الإسراء:١٠٠)، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف:٥٤)﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء:٢٨)، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ (عبس:١٧)، ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ.. ﴾(فصلت:٥١)[2].

إذا كانت هذه هي طبيعة الإنسان كما يصفها البارئ عز وجل، فإنه في مواضع أخرى من كتابه العزيز قد امتدحه بأوصاف وخصال كريمة وسجايا حميدة، من قبيل قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا. ﴾ (الفرقان:٦٣)﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال:٢). ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر:٩). إلا أن

(١) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق (من المقدمة).

(٢) علي الطنطاوي، صور وخواطر، مؤسسة الرسالة، ص ١٢٣.

الحقيقة التي لا تخفى على ذوي الألباب أن هذه الأوصاف التي حملتها هذه الآيات إنما خصت بها فئة الإنسان الذي أصلح إنسانيته بالإيمان والعمل الصالح، فإذا لم يفعل عادت هذه الإنسانية خسراً لصاحبها ووبالاً عليه، وكانت (حمارية) الحمار و (كلبية) الكلب خيراً من هذه (الإنسانية) في الدنيا، وأنجى منها من العذاب في الآخرة»[1].

نستنتج مما سبق أن الإنسان، مطلق الإنسان، محكوم عليه بالخسر والإفلاس، ولن يخرج من هذا الحكم العام أو الماصدق إلا الفئة التي أشربت قلوبها الإيمان، وأثمر هذا الإيمان لديها عملاً صالحًا تصلح به الحياة وترشد معالمها، وهذا مصداق قوله تعالى في سورة العصر. هذه المعطيات تقودنا لا محالة إلى الحقيقة الكامنة في أن هدف التربية إنما هو نقل الإنسان «من طبيعته المعطاة إلى جوهره المثالي (وإعانته) على التخلص من الأولى»[2].

إن معرفتنا لطبيعة الإنسان وجوهره، ووعينا بكافة الخصائص التي تميزه ككائن، قد تجعل في مقدورنا امتلاك المفتاح الذي ندخل بواسطته إلى شخصيته، وبالتالي التعامل معها بموضوعية وفهم ونفاذ بصيرة، لحل مشاكلها وفك عقدها، ومن ثم إطلاق طاقاتها لبناء صرح المجتمع القوي، وإننا بقدر ما نخطئ الطريق إلى ذلك الفهم الموضوعي

(١) علي الطنطاوي، صور وخواطر، مؤسسة الرسالة، ص ١٢٣.

(٢) مقداد يالجن، فلسفة الحياة الروحية، ص١٤.

الشامل، نقع في المزالق والمخاطر، فنعرض الإنسان -وبالنتيجة المجتمع- إلى الدمار. والفهم الموضوعي الشامل، يعني بالأساس أخذ الإنسان في أبعاده المختلفة والمتكاملة -المادية والروحية- حتى لا نقع عرضة لتشطير شخصية الإنسان وتمزيق أوصالها.

إن الأمر يتطلب -كما أسلفنا- فهمًا دقيقًا لنفسية الإنسان، أي مجمل نوازعه وأشواقه، وبناء على هذا (أي الفهم) عملاً جاداً ودؤوباً على توفير أفضل وضع وأحسن الشروط التي يمارس فيها الإنسان إنسانيته. ولن يتأتى هذا العمل إلا إذا قام المسؤولون عن تربية الأجيال بفرز العوامل والعناصر التي تتشابك وتتضافر لصنع الواقع الحالي، فـ «لقد طرأ علينا كثير من العوامل الجديدة في الأفكار والنظم والميادين، وقد أدى هذا إلى صراع كبير بين مقومات حياتنا المألوفة وبين العوامل الجديدة، مما أثار في النفوس قلقًا شديداً وزعزع أسس القيم والعقائد»[1].

وعملية الفرز المذكورة، أو عملية التقويم للوضع المجتمعي بشكل كامل، هي وحدها التي تعطي القائمين على أمر التربية وضوحًا في الرؤية، عند الشروع في الخطوات العملية في سبيل إعادة البناء والإصلاح. وإذا كان التقويم الشامل والدقيق للبناء الاجتماعي يوفر عنصر الوضوح في الرؤية، فإن التحديد الدقيق للهدف (أو الأهداف) يكسب المربين اتزانًا في العمل وقصداً في الجهد.. وهذا الهدف لا بد أن يكون هو بدوره قائمًا على الشمول، وهو شمول يستند لا محالة على القاعدة السابقة، أي شمول الفهم لكل عناصر الموقف، ويدخل

) فلسفة تربوية متجددة لعالم عربي متجدد، ص١٩٠.

فيها الإنسان والمجتمع.

وهذان الشرطان معًا، الإدراك التام للعناصر ومكونات البناء النفسي والاجتماعي من جهة، والتحديد العلمي للأهداف المتوخاة، هما ركنان أساسيان، كفيلان بالإعانة على إيجاد التجانس الاجتماعي «بين أفراد الأمة وطوائفها وأصنافها المختلفة، وتدعيم هذا التجانس واستمراره على أفضل الوجوه»[١].

والسؤال الذي يلح علينا الآن، هو سؤال عن أفضل الأهداف التي ينبغي أن تتمحور حولها عملية تربية الأجيال.. إن الجواب عن هذا السؤال يتم على مستويين:

١) **المستوى الأول**: هو الذي تتجلى لنا من خلاله فاعلية الأهداف، بغض النظر عن طبيعة الشحنات، وبتعبير أدق، القيم، التي تتغذى عليها تلك الأهداف.. وهذا ما يعطي لنا الحق أن نذهب مع من يقول بأن «أفضل الأهداف عند الفرد، يعتمد أساسًا على النظام القيمي الذي تعتنقه الجماعة، حينئذ يتحرك الفرد بما لديه من قدرات، يسهم مع أفراد المجتمع الآخرين المتوافقين معه لتحقيق مصالح الجماعة وإثراء جوانب حياتها المتعددة»[٢].

وهذا الأمر يبدو لنا على حقيقته عندما نلاحظ على الدقة الآليات التي تجري بموجبها عملية البناء الحضاري داخل مجتمع كالمجتمع الغربي مثلاً، فهو قد آمن بفلسفة معينة للحياة، وحدد لنفسه أهدافه على

---

(١) عبد الرحمن الباني، مدخل إلى التربية، ص٤٠.

(٢) محمد علي المرصفي، من المبادئ التربوية في الإسلام، ص١٣.

ضوئها، وإن مبادئ تلك الفلسفة التي تشبع بها أفراد المجتمع لتمتد بجذورها لتتغلغل في أعماق التاريخ والحضارة الغربية، تستمد منها العناصر والقوى التي تشكل عامل دفع وتحريك لعجلة الحضارة الغربية.

إن المبادئ المذكورة، بغض النظر عن مدى تعبيرها عن حقيقة الكون والإنسان والحياة، وبغض النظر عن شمولها لمتطلبات الوجود الإنساني، أو قصورها عن ذلك الشمول، فإنها تمارس فعلها على كل حال في تحريك دواليب الحضارة -إلى حين- كما يفهمها الأفراد الذين ينصهرون في بوتقتها.

٢) **المستوى الثاني**: فهو المستوى الذي تكون فيه الأهداف محددة بإحكام على ضوء الفلسفة الحقة، التي تنطلق من العلم الشامل بحقيقة الكون والإنسان والحياة.. الفلسفة التي تهتم، لا بجانب أو ببعض الجوانب وتضرب ببعضها الآخر عرض الحائط، بل تنظر إلى الإنسان ككل لا تتجزأ أبعاده. ولن يملك هذا الشمول والإحاطة إلا رؤية تنبثق من دين الإسلام، الذي نزله خالق الكون والإنسان، وتولى حفظه من كل تحريف أو تبديل.

وتحقيق الأهداف -كما أشرنا- لا بد أن يمر من خلال نسق من القيم يتوخى فيها الشمول والتكامل.. نسق من القيم تتكامل فيه النواحي العقدية مع النواحي المنهجية، وهذه مع النواحي الأخلاقية. إن نظاما بهذه الخصائص، هو الكفيل بإعداد الإنسان الذي يحمل الأمانة، أمانة الاستخلاف، على وعي وبصيرة، ويمضي بها حتى نهاية المطاف دون تذبذب أو تردد.

إن ذلك النسق القيمي الرباني، هو وحده القادر على استخراج

طاقات الإنسان المكنونة، وتحويلها إلى خير عميم، يعم البشرية كلها وينشر فيها إشعاعه، ولا ينحصر في أطر ضيقة محدودة.. إنه وحده القادر على بعث الأمل في البشرية بعد أن أصابها وخيّم عليها الوجوم واليأس. وإن محور الخلافة الذي تتكتل جهود التربية حوله، هو من الواقعية بمكان، حيث لا يدع مطلبًا من مطالب الذات البشرية، تنمو به وتتفتق مواهبها وملكاتها وتنطلق إلى أرحب الآفاق، إلا واستجاب له دون تحجير ولا تعسير، وفي إطار ضوابط تحفظ للإنسان كرامته.

وإذا أدركنا الطاقة العظيمة والهائلة التي يزود بها نظامُ القيم التربوية الإسلامية، الإنسانَ، والآفاق الرحبة التي يفتحها أمامه لتنمية الحياة وضبط سيرورة الحضارة البشرية في النطاق السليم فلا تزيغ ولا تتيه، إذا أدركنا ذلك، أدركنا بالمقابل فداحة الجرم وعظم الخيانة التي ارتكبها في حق المجتمع الإنساني، أولئك الذين جعلوا من أنفسهم أدوات مسخرة في يد الاستعمار -عن وعي أو غير وعي- إنه إخراج الأمة الإسلامية من مسارها الصحيح، والزج بها في خضم متلاطم تقود تياراته إلى قرار سحيق.

لقد أراد هؤلاء، الذي يحسبون في قائمة أهل الفكر والنظر -وما هم منه في شيء- أن تكون عملية التغيير منطلقة من فلسفات غريبة كل الغربة عن المجال النفسي والروحي والعقلي للأفراد الذين يستهدفهم التغيير، ويقوم على أكتفاهم في الوقت ذاته، فكان هؤلاء الوكلاء -بطبيعة دورهم- أشبه بمن يريد أن يطلق صاروخًا من قاعدة خالية من شروط الدفع والإرسال.

لقد ذهلوا عن أسرار الحضارة، وغاب عن وعيهم في خضم ذلك الذهول، أن الفعل الحضاري ليس فعلاً ترقيعيًا تلفيقيًا هجينًا، حتى

يستعير عناصره ومقوماته من خارج المجال الروحي لأمة من الأمم، فما بالك بأمة أبت المشيئة الإلهية أن تيسر لها الانطلاق في غير ظل رسالة الإسلام، إشعاراً لها بأن نهضتها ومبعثها من مرقدها، إنما يكون برجوعها إلى ينابيع دينها الصافية، تغسل بها ما ران عليها من أدران الثقافات المسمومة، فتخرج طاهرة معافاة، يتدفق نورها وإشعاعها في كل اتجاه، لتقول للعالم: «إن الإنسان الكامل هو إنسان أخلاق، بل هو الأخلاق قبل كل شيء. فالشرف والفضيلة والكرامة، والشهامة والشجاعة والتضحية، والنزاهة والصدق والاستقامة في المعاملة، والتواضع والوقوف إلى جانب الحق، والصبر عند الشدائد، وتحمل المسؤولية، والاعتماد على النفس، هي بعض الأخلاق التي يجب أن نغرسها في نفوس أبنائنا، مهتمين كذلك بالأخلاق العلمية كالتدقيق والضبط في القول والعمل، وبالأخلاق الاجتماعية كحب النظام والتعاون والثقة المتبادلة، ورعاية عواطف الآخرين، والشعور معهم، وحب خدمة المجموع، والمحافظة على المواعيد ... »[1].

ولسنا نشك لحظة واحدة في أن القادر على تخليص البشرية من شقوتها، وتزويدها بمنهج الحياة الصالح، هي هذه الأمة الإسلامية. ومن هنا بات من اللازم أن تبادر هذه الأمة إلى الاستجابة لأجيالها الشابة، التي تتوزعها لحظات التمرد والحلم، وتتعطش لمنهج يعطيها الأمن، ويلبي مطامحها، ويردم الهوة التي حفرتها الحضارة بين روح الإنسان وجسده، فعرضته بذلك للتمزق والضياع[2].

---

(١) فلسفة تربوية متجددة لعالم عربي متجدد، ص٤٨.
(٢) أنور الجندي، إطار إسلامي للفكر المعاصر (مرجع سابق)، ص٢٧٠ بتصرف.

الفصل الأول
القيم التربوية والثقافية

العلاقة بين القيم التربوية والثقافية

إن طبيعة الثقافة من حيث كونها ربانية أو بشرية، لها أثر فاعل وحاسم في نوعية القيم والمعايير التي تتشكل منها تلك الثقافة، وهي بالنتيجة ذات أثر حاسم في أنماط السلوك التي درج عليها الأفراد. وإذا كانت التربية تعني، من بين ما تعنيه، «اقتباس المعارف من كنوز الثقافة بغية النجاح في الحياة، ثم العيش بانسجام مع كياننا»[(١)]، فإننا نعلم أن تلك المعارف تتألف، من جملة ما تتألف منه، من نسق القيم التي لا مناص من أن يتم تمثلها من طرف الأفراد، إذا ما أرادوا أن يرتبطوا برباط الانسجام مع البيئة التي ينتمون إليها، إذ الثقافة كما يرى مالك بن نبي رحمه الله، «هي التعبير الحسي عن علاقة الفرد بهذا العالم، أي بالمجال الروحي Noosphére الذي ينمي فيه وجوده النفسي، (أي أنها) نتيجة الاتصال بذلك المناخ»[(٢)]

وعلى هذا الأساس، فإن «الثقافة الشخصية نقطة لقاء بين علم النفس وعلم الإنسان، فهذا العلم يذكرنا بأننا لا نستطيع أن نفهم

---

(١) المرجع السابق،٧٢.

(٢) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص٦٩.

الفرد فهمًا جيداً بغير أن نأخذ في اعتبارنا الوضع الثقافي ومقومات الثقافة، ولا أن نفهم مؤسسات الثقافة بغير معرفة بالأفراد الذين يشاركون فيها.. وكثير من جوانب سلوك الإنسان ينبغي أن تفسر لا في ضوء الفرد نفسه، بل وأيضًا في ضوء الثقافة، سواء كانت خارجية أو داخلية.. ونستطيع أن نلاحظ الثقافة في سلوك الأفراد »(١).

إن بإمكاننا أن نخلص بمقتضى المعطيات إلى أن اختلاف الأفراد من حيث أنماط السلوك، إنما هو عائد إلى اختلاف الثقافات التي يتحركون في مناخها، وهي تختلف باختلاف طبيعة القيم التي تشكل نسيجها وتكون نسغها. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد من وضعه في الحسبان كلما تعلقت الهمم بإصلاح الخلل في البناء الاجتماعي والحضاري، لأن المفروض في الفعل الثقافي « أن ينمي في الإنسان أساسًا دوافع البناء، وإذا شئت فقل: إن الفعل الثقافي، ككل فعل تغييري، ينبغي أن يشتمل على عنصري الهدم والبناء: هدم العناصر المظلمة التي تشد الإنسان إلى الحضيض وتعوقه عن الانطلاق(...) وبناء العناصر المشرقة التي تدفع بالإنسان إلى الحركة من أجل أن يسمو إلى مكانة التكريم الإلهي »(٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى حقيقة جوهرية من حقائق النفس

---

(١) محمد منير مرسي، أصول التربية، ص٢١٩.

(٢) د. حسن الأمراني، نحو ثقافة بانية: بل هي فتنة، مجلة المشكاة، عدد١، رجب ١٤٠٢هـ، ص٨.

والاجتماع، وهي أن العناصر المشرقة المذكورة، لن تتحول إلى فعل تغييري، إلا إذا تمثلتها النفوس وأدت بالتالي إلى تجانس بينها في الاتجاه والسلوك. «فلدى ميلاد المجتمع الإسلامي مثلاً، كانت ثقافة هذا المجتمع جد متجانسة، متحدة الطابع عند الخليفة والبدوي البسيط، وذلك يتجلى (على سبيل المثال) في موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما خطب في المسلمين غداة توليه الخلافة، فقال قولته المشهورة: «أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجًا فليقومه».. وكان الرد على هذه القولة ما نطق به أحد هؤلاء البدو البسطاء: «والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا»[1].

هذا الحوار الرائع، كان يعكس بشكل عجيب، وحدة الفكر والدوافع والعواطف التي كانت تحكم سلوك الخليفة والبدوي البسيط. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه هنا كان يتجه بخطابه في تلك اللحظة إلى مجتمع له منظومة خاصة من القيم، تغلغلت في نفوس أفراده واختلطت بدمائهم، فولدت نمطًا واحداً من الفكر والسلوك[2].

ولا يفوتني، وأنا بصدد مناقشة العلاقة بين القيم التربوية والثقافة، أن أؤكد، أن طبيعة البناء الثقافي، وبالتالي النسق القيمي، هي التي تحدد حجم المساحة من نفس الإنسان التي يستجيب لها ذلك الإطار

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص٧٠-٧١.

(٢) المرجع السابق، ص٧١.

الثقافي. فإذا كان ذلك الإطار فقيراً أو ناقصاً، بحيث يركز على أبعاد بعينها من الكيان البشري، فإن ذلك النقص لاحق لا محالة بتلك النفس، منعكس عليها بأكملها، والعكس صحيح تماماً. أي أنه بقدر ما يكون الإطار الثقافي متكاملاً بفضل مضمونه الغني من القيم التربوية التي تمس جوانب الكيان الإنساني بأكملها، ينعكس ذلك على الإنسان كمالاً وتوازناً وتماسكاً، يشد من أزر الإنسان في قيامه برسالته الحضارية، وهي وظيفة الاستخلاف في هذه الأرض.

فالثقافة «تعمل على تحرير الإنسان وعلى تقييده في نفس الوقت، فهي تقيد حريته في التصرف سواء من الخارج (من خلال القانون والتشريعات) أم داخلياً (من خلال العادة والضمير) حتى تخلق النظام الاجتماعي الضروري للحياة الاجتماعية في أية صورة.. وهي تحد الإنسان أيضاً، لأنها لا تسمح له إلا بتنمية (....) شريحة واحدة من طاقته الكلية...»[1].

غير أن هذا المعنى يعبر عن حقيقة نمط واحد من الثقافة، هو نمط الثقافات البشرية التي تعيش على جهل مقيم بالإنسان وبحاجاته الحقيقية وأشواقه العميقة. فهي مهما بذلت من جهد، تظل قاصرة عن الوفاء بتلك الحاجات والاستجابة لتلك الأشواق.. أما النمط الثقافي

---

(١) د. محمد منير مرسي أصول التربية، ص١٩٤.

الآخر وهو الثقافة الربانية، فمن بدهيات الأشياء أنها تحقق الإشباع لكل حاجات وأشواق الإنسان –إذا ما ربط وجوده بها– لأنها صادرة من خالق الإنسان الذي يعلم من خلق.

وإذا نحن تحدثنا بالنسبة المئوية على طريقة بعض المشتغلين بالمسألة الثقافية، قلنا بكل يقين: إن الثقافة الربانية ترعى وتنمي ١٠٠٪ من قدرة الإنسان الإبداعية، لأنها تطلق كل طاقاته من عقالها، في إطار من الضبط والتنظيم، يجعله في منجى من إهدار أي جزء من تلك الطاقة فيما ليس في صالح الإنسانية بعامة. وإن العطاء الذي قدمته الحضارة الإسلامية للإنسانية، خير دليل على ما أقول.

إن الحقيقة السالفة، تفسر لنا لماذا توقف ركب الحضارة الإسلامية عن العطاء، عندما اصطدم المسلمون بصخره الاستعمار، بحيث تجمدت قواهم وتعطلت قدراتهم الإبداعية، وما زالوا يعانون من هذا الشلل الفظيع، لأن نفوسهم ما زالت مقطوعة الصلة بذلك التيار العظيم، الذي أعطاها الدفع القوي في عهود التألق والازدهار.. إنه تيار الإسلام، عقيدة وشريعة ومنهج حياة، وما يتضمنه كل ذلك من قيم شاملة.

ولعل فحوى هذه الحقيقة هو ما ظل مالك بن نبي رحمه الله يدندن حوله في كتاباته التي تندرج في إطار مشكلات الحضارة.

يقول في كتابه (مشكلة الثقافة): «وسنظل نكرر ونلح في تكرارنا أن أزمة العالم الإسلامي منذ زمن طويل، لم تكن أزمة في الوسائل وإنما في الأفكار، وطالما لم يدرك هذا العالم تلك الحقيقة إدراكًا واضحًا، فسيظل داء الشبيبة العربية الإسلامية عضالاً بسبب تخليها عن ركب العالم المتقدم، فعلى المربين في البلاد العربية والإسلامية أن يعلّموا الشبيبة كيف تستطيع أن تكشف طريقًا تتصدر فيه موكب الإنسانية، لا أن يعلموها كيف تواكب الروس أو الأمريكان في طرائقهم، أو كيف تتبعهم؟»(١).

وأكثر من ذلك، فإن على هؤلاء المربين وعلى من بيدهم مقاليد الأمور -وهم الذين يملكون الحل والعقد- على هؤلاء جميعًا أن يسارعوا إلى تنقية الإطار الثقافي الذي يتحرك فيه الإنسان المسلم من العوائق والمثبطات التي تسحق الإنسان المسلم بلا رحمة، وتمارس عليه تعذيبًا رهيبًا، وتهز بنيانه النفسي والعقلي هزًا عنيفًا، لا يكاد يقوى على مقاومته والثبات في وجهه إلا من أوتي بسطة من العزم والإيمان.

والإسلام يسعف هؤلاء المسؤولين، إذا خلصت نياتهم وصح عزمهم، لأن منهجه "لبناء الثقافة منهج شامل، كما يجب أن يكون إن فهمناه حق الفهم.. وهذا الشمول هو من الخصائص الأساسية للشريعة،

---

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص١٧١-١٧٢.

فكل جانب من الحياة الإنسانية له حكمه الملائم في الإسلام. (. . .) ومن هنا فإن واجب المفكر المسلم أن "يؤسلم" الحياة، أي أن يحدد نظريًا وتطبيقيًا علاقة الإسلام بكل جزئية في الحياة الإنسانية »[١]

وخلاصة القول: «إن الديانة (عندما) تكون سعيا وراء مثال روحي، وتوقًا صادقًا إلى تحقيقه، فهي بحد ذاتها المظهر الأسمى للثقافة »[٢]. .

القيم التربوية بين الثبات التطور

في هذا المحور يجدر بي أن أطرح السؤال التالي: هل القيم التربوية تتسم بطابع الثبات أم بطابع التطور؟ وهل هي ذاتية أم موضوعية؟ يقول "د. منير مرسي": «تبعًا للنظرية التواترية، فإن الطبيعة الإنسانية طبيعة شاملة. فجوهر الإنسان يتمثل في الغاية التي يحيا من أجلها، والتي يجب أن تكون غاية دينية وعقلية وفكرية، لذا فجميع أشكال التربية في ظل جميع الظروف لها مثل أعلى ثابت »[٣].

إن ما ذهبت إليه النظرية التواترية ينطلق مما ينبغي أن يكون، وهو يعبر عن رؤية عميقة. ولكن السؤال المطروح هو ما إذا كانت الثقافات

---

(١) د. إسماعيل راجي الفاروقي رحمه الله، أسلمة المعرفة، ص٨٠-٨١.

(٢) المرجع السابق، ص٩٩.

(٣) د. محمد منير مرسي، أصول التربية، ص١٩٠.

الموجودة في العالم تعبر عن هذه الحقيقة المتصلة بفطرة الإنسان؟ إن واقع الأمور ينطق بخلاف ذلك، فما دامت المجتمعات لم تصدر جميعاً عن تلك الحقيقة، فإننا نجدها تفترق في ثقافاتها على فرق شتى، تتسع الهوة بينها وتزداد عمقًا بقدر ابتعادها عن عناصر الحقيقة المذكورة المجسدة لجوهر الإنسان. وهذا الأمر هو ما دفع "د. محمد منير مرسي" إلى اعتبار الإنسان الناضج نتاج ثقافة أكثر من أي شيء آخر يسمى بالطبيعة الإنسانية.. ويخلص من ذلك إلى أنه ليس ثمة تربية وحيدة مناسبة للإنسان في ذاته، بل هناك مدى من النظم التربوية المناسبة للناس بثقافاتهم المختلفة، ذلك أن الطبيعة الإنسانية هي نتاج لزمانها ومكانها(١).

لقد كان بالإمكان أن نتفق مع هذا الرأي لو بقي عند حدود تصوير الواقع الثقافي البشري على ما هو عليه، أما أن يتجاوز ذلك إلى القول بأن النظم التربوية المتعددة مناسبة للناس، فهذا ما لا يمكن أن يعبر عن حقيقة الأشياء. فمهما يبدو للنظر السطحي في بعض الأحيان، أن تلك الأنظمة التربوية مناسبة لأصحابها، فإن ذلك النظر لا يلبث أن ينكشف زيفه للعيان مع انفجار الأزمات الخانقة التي تطوق الإنسان وتعتصره بعنف من جراء التناقضات والفتوق التي تعاني منها

(١) انظر المرجع السابق، ص١٨٦.

تلك الأنظمة، لأن بناءها في واد، وجوهر الإنسان في واد آخر.

إن هذه الفكرة هي ما يشير إليه الكاتب نفسه بعد الفقرة السابقة بقليل بقوله: «ومع هذا فإن النسبية الثقافية تخلق أيضًا مشكلة خلقية خاصة بها، فهل لنا أن نتقبل أي عرف باعتبار أن له ما يبرره، بغض النظر عن مدى مقتنا له، طالما أنه يشكل جزءًا متكاملاً في ثقافة أخرى؟ أليس لنا الحق أن ننعي على الأبادة الجامعية وأكل لحوم البشر والرق والتعذيب الجسمي لمجرد أنها تمارس بواسطة شعوب أخرى؟...».

قد يقول قائل: ما دامت الطبيعة الإنسانية واحدة وجوهرها واحدًا، فلماذا هذه الألوان من الأوضاع الثقافية؟ وما السر في وجود أنماط متباينة من الناس تأخذ بقيم متباينة كل التباين، حتى لتصل إلى التناقض فيما بينها؟ والجواب[1] على هذا يكمن في طبيعة الإنسان نفسها، إذ ليس اختلاف النماذج البشرية باختلاف الثقافات دليلاً على تعدد الجوهر الإنساني، بل هو دليل على قابلية الإنسان للتطبع بعقائد البيئة وقيمها إلى حين.. تلك البيئة التي تكتنفه في مراحله الأولى -وهي مراحل الطواعية المفتوحة لكل شيء- مما يترتب عنه تشكل عقليته ونظرته للحياة، وفقًا لقوالب تلك البيئة التي تحتضنه.

---

(١) ذكره عيسى عبده.

أضف إلى طواعية الإنسان ومرونة طبعه، حرص الآباء على أن يكون أبناؤهم على غرار النماذج المرضية عندهم، المألوفة لديهم. هذه الحقيقة الكبرى هي ما يتضمنه حديث رسول الله ﷺ: « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه** »(١).

لقد أخرج هذا الحديث المولود البشري وعزله ككائن مستقل عن المجتمع (الدين) الذي يولد فيه، وجعله على طرف واحد، وجعل على الطرف الآخر ما يتوارثه الآباء والمجتمع من دين ومعتقدات وقيم ونمط في الحياة، وأشار بهذا الفصل إلى وجود تناقض حاد وعميق بين الطرفين: بين ما ترشحه له فطرة الإنسان التي جعلها الله في خلقه من جهة، وبين حرص وقدرة الآباء على نقل ما توارثوه وتعودوا عليه، إلى أولادهم من جهة أخرى. فأثار هذا الحديث بهذا الفصل قضية صارت أهم وأكبر قضية في تحرر الإنسان وفي تربيته بعد مجيء الإسلام: فهل يتقرر نمو ومصير المولود البشري في عقليته ومعتقداته وقيمه، في هويته الدينية الحضارية، بفعل ما توارثه آباؤه من المجتمع الذي يولد فيه؟ أم هل يمكن أن يكون له مصير آخر يختلف عن ذلك المصير؟ وما هو هذا المصير؟ وأي المصيرين خير له وأفضل؟ وكيف نحكم في هذه القضية وعلى أي أسس؟(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٥٦٨، في كتاب القدر.

(٢) عيسى عثمان، النظام التعليمي السائد في المجتمعات الإسلامية واستبداله بنظام إسلامي، مجلة الفكر العربي، عدد٢١، السنة٣/١٩٨١م، ص٢٩٢.

من خلال هذا النص العميق حقًا، والذي نفذ فيه صاحبه إلى جوهر المشكلة الثقافية والتربوية، تتكون لدينا قناعة بأن المظاهر التي قد تتجلى فيها الطبيعة الإنسانية، والأردية التي ترتديها، لا ينبغي بحال من الأحوال أن تحجب عن عقولنا ذلك الجوهر الكامن في أعماق نفس الإنسان، وإلا كنا معرضين للانسياق وراء أهواء الإنسان وتعبيراته الفجة، ظانين أنها تعبر عن أصالته وحقيقة وجوده. وينبغي في مقابل ذلك، أن نتجه بأنظارنا ونحن نتعامل مع الإنسان، إلى أن نخاطب فيه فطرته الثابتة، التي تحتاج إلى نسق ثابت من القيم لا يتبدل، وإلا انحرف عن جادة الفطرة إلى متاهات تشوه الإنسان. وصدق الله تعالى القائل: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ (الروم: ٣٠). ﴿ ..... فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر: ٤٣).

إن «هذا التركيز على ما أوجد في خلق الإنسان من قدرات ترشحه لحب الحق والتوجه نحوه وبه، نقل مهمة التربية نقلاً جذريًا وغير غاياتها تغييرًا أساسيًا، فبعد أن كانت مهمتها نقل ما توارثه الآباء والمجتمع، صارت مهمتها توفير ما يلائم فطرة الإنسان من نمو عقلي وخلقي ووجداني. وصارت غايتها كمال هذه الفطرة. وبهذا الانتقال، ارتقت التربية من ضيق وتعدد ونسبية المجتمعات المختلفة، إلى تربية

عالمية ترتبط بحقيقة الإنسان نفسه أينما كان وفي أي عصر كان»[1].

إن المعطيات الآنفة الذكر يشهد لها ويعضدها أن «الإنسان المعاصر رغم كل التطورات التي تعرضت لها حياته، يؤمن بنفس المفاهيم والقيم التي كان الإنسان يؤمن بها قبل مراحل عديدة من التاريخ المعاصر. فإن المحبة والتآلف، والرحمة والعدل، والصدق والأمانة، والحرية والعواطف الإنسانية، التي كانت تحتل محلاً رفيعًا منذ أقدم العصور في تاريخ الإنسان، لا تزال تحتفظ بمكانتها من النفس الإنسانية، في ظروف مادية مختلفة تمامًا عن الظروف السابقة لحياة الإنسان»[2].

والتربية في البلاد الإسلامية، لكي تخرج من هذا التخبط المريع، لا بد لها من أن تعض بالنواجذ على هذه الحقائق، ليس لتنقذ نفسها من الضياع والعزلة التي تنوء بأثقالها فحسب، بل لتخلص الإنسانية الشقية من حولها، التي تعاني أصعب حالات الاغتراب عن الذات، والابتعاد عن الفطرة.

طبيعة القيم في نظر الإسلام:

إن النظرة الإسلامية للقيم تتصف بالكمال، لأنها تنبع من المذهبية الكاملة، لأن مصدرها هو الله عز وجل الذي يعلم خبايا

(١) عيسى عثمان، المرجع السابق، ص٢٩٤-٢٩٥.

(٢) محمد مهدي الآصفي، دور الدين في حياة الإنسان، ص١٧٣.

الإنســان والكون وسننه، التي في إطارها يتـحـرك الإنسـان ويمارس وظيـفـتـه في الحـيـاة: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٤)، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (غافر:١٩). فـالإسلام الذي حـرر الإنسـان من عبـودية نفسـه، ومن الغرور، أمـده بالتصور الصحيح، وحدد له الضوابط التي ينبغي أن يقف عندها، إذا هو أراد أن يحترم عقله ونفسه، والتي إذا تجاوزها لطيش أو غرور، وقع لا محالة في تناقضات صارخة، وحكم على نفسه بالتيه والدوران في دوامة محرقة.

نخلص إلى القول:بأن العلاقة بين الثقافة والقيم التربوية، علاقة وثيقة لا تقبل الانفصام. فالقيم التربوية لا بد لها من جذور تستمد منها قوام حياتها وتصورها العام، الذي هو مبرر وجودها، وإلى أن تلك القيم بطبيعة تكوينها وما تحمله من شحنات مثيرة لفعاليات الإنسان وقواه، لا بد أن تطبع سلوكه بطابع معين يتناسب مع تلك الشحنات ودرجتها من القوة أو الضعف، أو من السلامة أو الشذوذ. وكم هو دقيق ذلك التشبيه الذي وضعه مالك بن نبي رحمه الله للثقافة حيث يقول: «وإذا أردنا إيضاحًا أوسع لوظيفة الثقافة، فلنمثل لها بوظيفة الدم، فهو يتركب من الكريات الحمراء والبيضاء، وكلاهما يسبح في سائل واحد من "البلازما" ليغذي الجسد.. فالثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع، يغذي حضارته، ويحمل أفكار "العامة"، وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات

الموحدة والأذواق المتناسبة»[1].

إذا كانت الثقافة -إذن- بمثابة الدم الذي يسري في أوصال المجتمع، فإن حال ذلك المجتمع تكون رهينة بطبيعة ذلك الدم، فإن كان نقيًا مبرءًا من جراثيم الفساد، محملاً بعناصرالقوة والعافية، عاد على المجتمع بالقوة والنماء، وإن كان مشحونًا بجراثيم الفساد والمرض وأخطرها فيروس انعدام المناعة، آلت حالة المجتمع إلى التآكل والانهيار.

إمكانية قياس القيم:

إذا كانت معظم الفلسفات تعتبر القيم من حيث بعدها المطلق (ما ينبغي أن يكون)، فقد أصبحت هناك في الوقت الراهن نزعة إلى تحديد القيم على أساس الدقة، عن طريق قياسها بطريقة إجرائية.. ويمكن التمييز داخل هذه النزعة أو الاتجاه بين أربع فئات، الفئة الأولى تنظر إلى القيم بوصفها اهتمامات أو اتجاهات إزاء أشياء ومواقف أو أشخاص، «لذا فإنه يمكن قياس القيم من خلال تصميم مقاييس معينة يعرض فيها مواقف مختلفة، ويطلب من المرء أن يستجيب باختيار بديلين أو أكثر.. وتضم هذه المواقف اهتمامات الأشخاص بالأنشطة والأشياء المختلفة، أو تتعلق بمعاييرهم ومثلهم العليا»[2].

والاتجاه الثاني يقوم على أن المؤشر الرئيس للقيم هو السلوك، وهذا يعني أن تلك القيم تدفع أصحابها إلى أنماط معينة من السلوك، لذا يرى "بارسونز" أن القيم التزام عميق من شأنه أن يؤثر على

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ص١٣١.
(٢) د. ضياء زاهر، (م.س) ص١٧ : ١٨.

الاختيارات بين بدائل الفعل (السلوك)[1]. ومن خلال طرح تلك البدائل أمام الشخص، يمكن معرفة القيم التي يتبناها.

ويؤخذ على هذا الاتجاه والذي قبله -هذا فحوى كلام "د. زاهر"- أن اتخاذ الشخص لموقف معين أو إظهاره التوافق مع اتجاه معين، لا يدل دائمًا على أنه هو الاتجاه أو الموقف المرغوب لديه، بل قد يكون هو السلوك المرغوب في ثقافته[2].

والواقع أننا إذا دققنا النظر في هذه المآخذ التي سجلها "د. زاهر" على الاتجاهين السابقين، أدركنا أنها مصيبة في جانب، مجانبة للصواب في آخر، ذلك أنه إن وجدت في المجتمعات فئات واسعة من الناس تساير المجتمع أنى سار وتخضع للضغط الاجتماعي، بسبب قلة في الوعي وضيق في الرؤية، فإن فئات من الناس -وإن كانت قليلة- تحقق إلى حد كبير، التجانس والتوافق بين القيم التي تعتنق والسلوك الذي يصدر عنها. وقد يبلغ بها تمسكها بقيمها حدّ الاستماتة وبذل النفس في سبيلها، وذلك هو ديدن المصلحين الذين ينشدون تغيير المجتمعات وإنقاذها من الركود وسلطان العادات السيئة والتقاليد البالية.

أما الاتجاه الثالث، فهو الذي يجمع في قياسه للقيم بين مؤشري السلوك والاتجاه. وأخيرًا الاتجاه الرابع الذي يقيس القيم من خلال التصريح المباشر بها ...[3].

إننا بالنظر إلى هذه الاتجاهات في ضوء التصور أو المذهبية

(١) د. ضياء زاهر، ص١٨.
(٢) نفسه، ص٢٠.
(٣) نفسه، ص٢٠-٢١.

الإسلامية، يمكننا أن نمسك بالمقياس الذي يدلنا على نوعية القيم التي يأخذ بها فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعات داخل المجتمع الواحد... إن الإسلام يخبرنا مثلاً وهو يتعرض للقيمة الكبرى، وهي الإيمان بالله، التي تنبثق عنها سائر القيم الأخرى، يخبرنا أن مقياس ذلك الإيمان هو العمل الصالح، فالإيمان: «**هو ما وقر في القلب وصدقه العمل**»[1]. والفصل بين الإيمان والعمل، يُدخل صاحبه في زمرة المنافقين الذين أعد الله لهم الدرك الأسفل من النار، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (النساء:١٤٥).

وهكذا، فكل قيمة يتشبع بها المسلم لا بد أن تظهر آثارها من خلال السلوك الصادر عنه. إلا أن القوة التي يظهر من خلالها السلوك، تعرف ولا شك تفاوتًا يمكن أن نمثل له بسلم متفاوت الدرجات، يتبارى الأفراد في الإسلام من أجل الحصول على أعلاها، كل حسب قوة إيمانه وخصائصه النفسية وأساسه التربوي.. قال تعالى: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ (المطففين:٢٦)، وقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣).

وبعبارة موجزة نقول: إن مقياس قيمة أو نسق كامل من القيم، إنما يظهر سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات أو الحضارات، من خلال الآثار التي تترجم عنها الدوائر السابقة.

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة، الباب التاسع، ونصه: «الإيمان معرفة بالقلب وقول باللـــــسان وعمل بالأركان»، وفيه أبو الصلت وهو مضعف من العلماء. (انظر كتاب المقاصد الحسنة، ص٢٢٨، وكتاب الموضوعات ١/١٢٨).

الفصل الثاني

تنظير أسس القيم التربوية الإسلامية

تحديد المراد بالقيم التربوية الإسلامية

إذا كانت التربية الإسلامية تهدف «إلى رعاية الإنسان في جوانبه الجسمية والعقلية والعلمية واللغوية والوجدانية والاجتماعية والدينية، وتوجيهها نحو الصلاح والوصول بها إلى الكمال، (وإذا كانت غايتها) هي تحقيق العبودية الخالصة لله في حياة الإنسان على مستوى الفرد والجماعة والإنسانية، وقيام الإنسان بمهامه المختلفة لعمارة الكون وفق الشريعة الإلهية»(١)، فإن ذلك يعني صياغة الشخصية الإسلامية وفق نسق متكامل من العناصر التي تغذي بناء تلك الشخصية في جميع أبعادها المتفاعلة، بحيث تنهض بمهامها على الوجه الأكمل. وليست تلك العناصر سوى مجموعة القيم التي تحقق للإنسان إنسانيته ككائن حظي بالتكريم من الله عز وجل، هذا التكريم الذي تجسد بمنحة العقل وأمانة الاستخلاف في الأرض.

وما دام الله عز وجل قد جبل الإنسان بفطرة تؤهله للتشكل وفق الأهداف الخيرة، وقابلية السير في خطها المستقيم، فإن القيم التربوية الإسلامية تكون على هذا الأساس هي تلك المفاهيم والمعاني التي يولد

---

(١) د. سيد سجاد حسين و د. سيد علي أشرف، أزمة التعليم الإسلامي، ص٦١.

الإنسان بموجبها ولادة ربانية، ويعيش في ظلال طاعة الله وحمل النفس على تنفيذ مراده في هذا الكون .. وإن أبلغ تعبير عن القيم التربوية الإسلامية -على ضوء ما سبق- هو ما تجسده سورة العصر التي يقول فيها الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (العصر:١-٣).

هذه الآيات الكريمة تبرز لنا بوضوح الإطار المتكامل لحركة الإنسان وقيامه بعمارة الحياة.. إنها تبين لنا أنه لا مجال للحديث عن القيم الإسلامية إلا بالاستناد إلى الركيزة الكبرى، وهي الإيمان بالله عز وجل. فمن هذا الإيمان، الذي هو القيمة الأعلى والأسمى، تنبثق القيم الأخرى، كما يتبثق النور من الشمس.. فجماع القيم التربوية الإسلامية إنما يرتكز في الصفات والخصائص التي جاءت عقب الإيمان بالله في هذه السورة الكريمة، وهي العمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر...

والسمة التي لا بد من وعيها والتشبع بها -ونحن في معرض الحديث عن التربية الإسلامية- هي أن القيم التربوية الإسلامية، هي وحدها المفضية إلى النجاح والفوز، الآيلة بمعتنقها إلى بر الأمان، حتى إذا لمحنا نظاماً تربوياً يطبعه التخبط والتعثر والعقم، حكمنا على الفور:

أنه ليس نظامًا إسلاميًا، حتى وإن زعم له ذلك الزاعمون، ذلك أنه «على امتداد الزمان في جميع الأعصار، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار، ليس إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج، هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده، هو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسارة»(١).

وتقوم هذه الحقيقة على أساس نظري ثابت هو أنه بقدر« ما تكتمل بنية النظرية الاجتماعية، تكتمل بنية النظرية التربوية.. وبقدر ما تتصف النظرية الاجتماعية من الشمول والتكامل والاكتمال والوضوح والعمومية والقابلية للتطبيق، وبقدر ما تخلو من الغموض والتناقض والصراع بين أفكارها وقيمها، بقدر ما تكون النظرية التربوية قادرة على تمثل هذه الصفات والخصائص في معالجة القضايا التربوية المختلفة»(٢).

والهدف الذي تسعى إليه القيم التربوية الإسلامية، هو إحداث وإنشاء هيئة راسخة في نفس الإنسان، بحيث تتجه به نحو العمل الصالح... والعمل الصالح كما هو واضح من خلال سورة العصر وغيرها من السور والآيات، يشمل كل مكارم الأخلاق، سواء ارتبطت تلك الأخلاق بتهذيب النفس أو شحذ العقل وإطلاق طاقاته، بما يحقق التكامل المنشود من قبيل: الصدق، والإخلاص، والعدل،

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، تفسيرسورة العصر.

(٢) د. محمد السيد سلطان، النظرية التربوية في الإسلام، ندوة خبراء أسس التربية الإسلامية، ص٢.

والإيثار، والوفاء، وحب الخير للناس، والتعاون، والاعتدال في المأكل والمشرب والإنفاق، والحرص على الوقت من الضياع، وصلة الرحم، ومواساة الضعفاء... إلخ.

ونستطيع أن نخلص من الكلام السابق إلى أنه حتى وإن ظهر لنا في بعض الأحيان بعض النظم التربوية التي تضم قيمًا شبيهة بالقيم المذكورة، فإن ذلك لا يشفع لها أن تحمل صفة القيم الإسلامية، لأنها تفتقد إلى الأساس الراسخ الذي هو الإيمان الكامل بالله عز وجل، أولاً، ولأنها تفتقد إلى الشمول والتكامل والاكتمال والوضوح والعمومية والقابلية للتطبيق، التي تضمنها كلام الدكتور محمد سيد سلطان عن النظرية الاجتماعية.

تمحور القيم في الإسلام حول الكليات الخمس

سبق أن أشرت في التمهيد لهذ البحث، إلى أن الإنسان –مطلق الإنسان– محكوم عليه بالخسار، وأنه لايخرج من الحكم، إلا بفضل إيمانه بالله عز وجل وتحليه بمكارم الأخلاق التي تنعكس على علاقته بربه وعلاقته بأخيه الإنسان وبظواهر الكون من حوله. والإنسان كائن اجتماعي، إضافة إلى كونه يشعر بعمق بكيانه الفردي الأصيل، ويريد الاستمرارية والبقاء، ويدافع عنه لذلك، بكل ما أوتي من إمكانيات ووسائل... وأوضح مقومات هذا الإنسان عقله ونفسه ونسله..

فالعقل هو أداة الإنسان الفعالة التي يمارس بها أمانة الاستخلاف عن طريق عملية التفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض، بحثًا عن الطاقات المسخرة فيها من أجل إنجاز عمله الحضاري وحماية وجوده.

وهنا يأتي عنصر المال كأداة ضرورية لاستمرار العمل الحضاري، وقبل ذلك لاستمرار حياة الإنسان، غير أن العناصر الضرورية السالف ذكرها (العقل، النفس، النسل، المال) لا تكتمل إلا بعنصر ضروري آخر هو الدين، بل إن الحياة الإنسانية أو الوجود الإنساني لا يقوم إلا به.

وهذه العناصر الخمسة هي ما اصطلح على تسميته بالكليات الخمس، يقول أبو إسحاق الشاطبي وهو يتحدث عن تلك الكليات: «إن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها أن تكون ضرورية، والثاني أن تكون حاجية، والثالث أن تكون تحسينية.. فأما الضرورية فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين. والحفظ لها يكون بأمرين: أحدهما ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود، والثاني ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم»(١).

---

(١) أبو إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠هـ)، الموافقات في أصول الشريعة، ٩/٢.

ومن خلال كلام الإمام الشاطبي يتبين أن الهدف من تكاليف الشريعة يتمحور حول صيانة وحفظ مجموعة من المقاصد المرتبطة بالحياة الاجتماعية والفردية للإنسان، ومن ضمن هذه المقاصد ما هو ضروري مما سبقت الإشارة إليه، وأنه بدون تحقيق المقاصد تختل حركة الحياة وتصير إلى فساد... ويتبين لنا أيضاً أن حفظ تلك المقاصد يكون أولاً بإقامة أركانها وتثبيت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود، أي رعاية الشروط التي تحمي كيانها وتحافظ عليه في صفة السلامة والكمال والتوازن.. ويكون ثانيًا بدرء الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم، أي الحيلولة دون ما من شأنه أن يعرضها (أي المقاصد) للتلف أو الضعف والنقصان.

إذا عرفنا هذا، عرفنا تبعًا له أن حفظ تلك المقاصد لا يتم إلا من خلال تشبع الأفراد بنظام من القيم يتصف بالكمال. ومن خصائص الكمال، أن تكون تلك القيم ملامسة لشغاف الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لصيقة بها، لا تنفك عنها قيد أنملة. وليس ذلك النظام إلا النظام القيمي الإسلامي، الذي هو قوام النظام التربوي في الإسلام. وهذا النظام القيمي -كما أسلفت- هو الذي يتشكل منه النظام الاجتماعي، ويقوم على أساس راسخ هو الإيمان بالله، والإقرار بالعبودية الخالصة له، إذ أن «هناك ارتباطًا بين طبيعة (النظام الاجتماعي) وطبيعة (التصور الاعتقادي)، بل هناك ما هو أكبر من

الارتباط الوثيق. هناك الانبثاق الحيوي. انبثاق النظام الاجتماعي من التصور الاعتقادي، (..) هذا الانبثاق، ثم هذا التكيف، وجه من وجوه الارتباط بين التصور الاعتقادي والنظام الاجتماعي، بل منهج الحياة كله، بما فيه مشاعر الأفراد وأخلاقهم وعباداتهم وشعائرهم وتقاليدهم، وكل نشاط إنساني في هذه الأرض جميعاً»(١).

على هذا الأساس، فإن القيم التربوية من تعاون وصدق في القول وإخلاص في العمل ووفاء واحترام لكرامة الإنسان، وحب الخير للناس، وتقدير لأمانة الاستخلاف، وإغاثة الملهوف... وصبر على الشدائد، وغيرها من القيم التربوية الإسلامية، لا يمكن أن تينع وتزدهر إلا في ظل الاعتقاد الصادق في الله ومراقبته بصفة دائمة. وهذا الشرط وحده، هو الكفيل بضمان الحفاظ على المقاصد التي رمت إليها الشريعة الإسلامية. إن الإسلام «يعتبر القيم عماد المجتمع وسنام نظامه، بل ونظام الأمة الاجتماعي كله، ولهذا السبب فإننا لا نجد أي مفهوم للأخلاقيات الشخصية أو التقوى يخلو من العمل الاجتماعي في ظل الإسلام، وبالتالي تحتل الشريعة مكانة سامية في إطار المجتمع الإسلامي. فإذا حدث خروج عنها، اختلت الشخصية الإنسانية وتأثر الفرد مادياً واجتماعياً»(٢)وانهار المجتمع بأكمله.

---

(١) انظر سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، ص١٢-١٣.

(٢) د. سجاد حسين ود. سيد علي أشرف، أزمة العالم الإسلامي، ص٩٠.

ولا يفوتني وأنا أعالج هذه النقطة المهمة، الإشارة إلى أن القيم التربوية الإسلامية لا ترتبط بصلة وثيقة بالكليات الخمس التي تكتسي طابع الضرورة فحسب، بل إنها تمتد لتنسج خيوطها مع دائرتين اهتم بهما علماء أصول الشريعة ومقاصدها، وهما دائرتا الحاجيات والتحسينات.

إن القيم التربوية في مفهومها الإسلامي، تنشر أجنحتها على سلوك الإنسان في جوانبه الدقيقة لتضمن لها الارتقاء والتدرج في مستويات الكمال والذوق الرفيع. وإذا كان المسلمون يتفاوتون فيما بينهم في الأذواق والأشواق، فإن ذلك التفاوت يقوم على المقدار الذي يجنيه كل فرد من هؤلاء، من الشحنات والدفقات التي تهبها القيم التربوية لكل متشبع بها، أي أن ذلك التفاوت ينبني -بتعبير آخر- على حظ كل واحد من أفراد المسلمين في المسابقة والمسارعة إلى الخيرات التي يسعى المسلم أن يصل من خلالها إلى الله تعالى، فيقف بين يديه وهو على قدر كبير من الصفاء والارتقاء.

ونخلص في ضوء المعطيات التي مرت بنا، إلى أن القيم التربوية الإسلامية تتمحور حول الكليات الخمس وما يتعلق بها من حاجيات وتحسينات، وأنها تتحرك في إطار العقيدة، أي في إطار التصور الشمولي الذي يمنحه الإسلام للإنسان، فهو المهماز الذي يحفز تلك

القيم ويمنحها قوة الدفع.. وبدونها يظل الإنسان مثاقلاً إلى الأرض، راسفًا في أغلال الماديات.

إن الإنسان هو محور الحياة في هذه الأرض، ومن ثم فهو محور ومدار النظام التربوي وما يتضمنه من نسق للقيم... والهدف من النظام التربوي كله في أي مجتمع من المجتمعات، هو الارتقاء بهذا الإنسان، والارتفاع به إلى القمة، وتمكينه من القيام برسالته.

سيادة القيم التربوية الإسلامية في المجتمع الإسلامي (عصر النبوة فما بعد)

من المعروف أن شخصية الإنسان تخضع لعنصرين، عنصر الوراثة وعنصر البيئة، فمبقتضى هذا الأخير، إما أن تنفتح الفطرة وتجد مرتعها الخصيب الذي يضمن لها السلامة والطهر، وإما أنها على العكس من ذلك -تصطدم بشتى العوائق التي تـ ـد دونها المنافذ وتحكم حولها طوقًا من الظلمة الدامسة. وإذا نظرنا إلى الإنسان في ظل عصر النبوة والعصور الزاهية التي عرفتها الحياة الإسلامية، وجدنا أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، قد سعدت بإطارها الرحيب الذي أعطت فيه ثمارها.. وقدمت مباهج إبداعها.. وما ذلك الإطار الرحيب سوى نسق القيم، الذي حركت دفقاتُه العظيمة مكامن الإنسان، فراحت تعرض لنا من المشاهد الرائعة والصور الجميلة ما هو

جدير بالوقوف عنده، بكل خضوع وإجلال..

ولقد سبق لنا أن عرفنا أن من أخص خصائص التصور الإسلامي للألوهية والحياة والكون والإنسان، الشمول.. ولكن الذي ينبغي التأكيد عليه أن ذلك التصور مع شموله فهو واقعي إيجابي، وهو يكره بطبيعته أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي، لأن هذا يخالف طبيعته وغايته.

فإذا أتينا إلى القيمة الإيمانية، وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وجدنا أن هذا الإيمان هو الآصرة التي تجمع بين القلوب، والمقياس الذي يقوم عليه الحب والكره والوئام والخصام.. فإذا انفصمت هذه الرابطة لم تفد في تعويضها أواصر الدم والقربى. فالأخوة الحقة إنما تنحصر في نطاق الإيمان بالله عز وجل مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، ويكون ولاء المؤمنين فيما بينهم قائمًا على رابطة الإيمان وما يقتضيه من تبعات لا تنفك عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ (الأنفال: ٧٢).

إن العقيدة التي تدفع صاحبها لأن يضرب صفحا عن العرى الكاذبة والخيوط الواهية، لخليقة بأن يفيض من ينابيعها أروع القيم،

التي تختلط بالمشاعر، فينطلق منها أريج لا ينقطع شذاه، هو تلك المواقف الخالدة التي لا تنفك أصداؤها تتردد في الآفاق لتعلن للعالمين أن أمثالها لا يمكن أن تحدث إلا في ظل الإسلام العظيم.. لقد انطلق تيارها ليجوب نفوس المسلمين بجميع فئاتهم من الأئمة المسلمين.

ولقد أعطى الجيل القرآني الفريد -الذي تربى في رحاب مدرسة الرسول ﷺ- البرهان الساطع على الثبات أمام مطامع الدنيا وشهواتها وهم على قدرة على الإمساك بها. لقد انحنت جاثية عند أقدامهم، ولكنهم زهدوا فيها في إباء وشموخ، وأشاحوا عنها بوجههم حتى لا يسقطوا صرعى لغوايتها وسحرها.

وأنى وليت وجهك وأنت تبحث عن تجسيد للقيم السامية التي تتسنم بها النفوس القمم السامقة، وجدت ما يروع وما يعجب. في التواضع والمساواة والكرم، وفي الإخلاص ونكران الذات، والصدق، والتعاون، وغيرها من المثل العليا.

وهذا التجسيد للقيم لم ينضب معينه، ولم ينحصر في عصر النبوة وحسب، ولكنه ظل يترىٰ ويظهر عبر عصور التاريخ الإسلامي على تفاوت فيما بينها في الإشعاع والتألق، وذلك بمقدار ما كانت تتفاوت في الاقتراب من النبع والاغتراف من خيراته وكنوزه والتزود من طاقاته، وعلى تفاوت كذلك في الكثرة.

القيم التربوية عند أهل السنة والجماعة

ارتباط الأخلاق بالشرع، وبالتالي فهي ليست نسبية:

رأينا من خلال المحور السابق، أن القيم التربوية الإسلامية كانت هي السائدة في عصر الرسول ﷺ وصحابته الميامين رضوان الله عليهم أجمعين. ولم تزل تلك القيم تنشر ظلالها الوارفة على مجتمع المسلمين، بقدر استمدادهم منها وربط نفوسهم بها.. وواضح أن السر من وراء ذلك التجانس الكبير، الذي عرفته الحياة في ظل القيم الإسلامية، يكمن في وحدة وثبات المصدر الذي كان يستقي منه أفراد المجتمع الإسلامي.

ولعل القضية التي سأناقشها في هذا المحور، ستلقي بعض الضوء على ذلك السر.. وهذه القضية تتعلق بالأخلاق أو القيم التربوية عند أهل السنة والجماعة.. على أي أساس تقوم؟... وسأقدم بين يدي هذه المسألة الأسئلة التالية:

هل المعول في القيم التربوية على العقل؟ أم الدين؟ وهل العقل الفردي أو ما يسمى بالعقل الجمعي، بقادرين على بناء نسق أخلاقي يطبعه التوازن والشمول ويلائم فطرة الإنسان، وينظم حياة المجتمع البشري؟ بتعبير آخر: هل من المقبول في ضوء مصلحة الفرد والجماعة البشرية. أن تكون القيم التربوية نسبية خاضعة لاختلاف المجتمعات

وما يلابسها من أوضاع وأحوال؟ أم أن نسقًا واحداً من القيم هو الصالح للإنسان في كل الأماكن والعصور، وأن على الإنسان، حيث كان وفي أي عصر كان، أن يضبط سلوكه ويكيف حركته وفقًا لذلك النسق من القيم؟

هل المعول على العقل في بناء الأخلاق؟ كثير من الفلاسفة قد أجابوا بالإيجاب على هذا السؤال... وأحسنهم خطأ وأقربهم إلى الصواب، أو بالأحرى أبعدهم عن الشطط والمبالغة، من قال بالالتزام بالأخلاق الإنسانية. ومن هؤلاء الفيلسوف الفرنسي "برغسون" (١٩٤١)[١]. ولكننا نسائل "برغسون" عن الجهة التي سيوكل إليها أمر وضع هذا النظام الأخلاقي، الذي سيطلب من الإنسانية السير على منواله؟ لا شك أن جوابه لن يعدو أن يشير إلى مجموعة كبرى من المفكرين، تجتمع على صعيد واحد، وتتداول في شؤون الأخلاق التي تهم البشرية.. وهل خليط من العقول الصادرة من كل حدب وصوب، تحمل آثار بيئات مختلفة، لها من خطوط الاتفاق والالتقاء ما ينتهي إلى صيغة موحدة؟ وهب أن ذلك قد وقع، فهل تكون تلك الصيغة مصادفة للصواب ملائمة لفطرة البشر؟

الواقع أن المتمعن في قضية العقل البشري، وتحليلها من جميع

---

(١) انظر محي الدين عزوز، التربية الإسلامية والتطور، ص٣٢.

جوانبها، لا مفر له من الوصول بكل طمأنينة وجلاء إلى الاقتناع بنقص الفكرة العقلية، وعجزها عن إرساء قواعد سليمة للقيم... وذلك للأسباب التالية:

١) «لأن العقول -مصدر هذه الفكرة- متفاوتة في إدراكها وفي حكمها على الأشياء، وفي مقاييس الخير والشر، فيستحسن بعضها ما لا يستحسنه الآخر، ويستقبح بعضها ما لا يستقبحه الآخر. وقد رأينا في عصرنا الحاضر ألوانًا للفكرة العقلية أوقعت الشعوب في الحيرة والاضطراب رأينا شيوعية ورأسمالية وديموقراطية وديكتاتورية، إلى غير ذلك من أنواع البرق ذي الألوان الخاطفة، وكلها يلبس الحق بالباطل، ويحاول أن يغتصب ما استطاع أن يغتصب»[١].

٢) لأن العقول في إفرازها للأفكار، تقع تحت طائلة الأهواء والمصالح الشخصية التي لا يستطيع أصحابها التحرر من ضغطها. وكم طلع المفكرون على الناس بقوانين زعموا لها من الأهداف السامية والنوايا الطيبة ما كذبته الشواهد وأثبتت عكسه تمامًا، أي أن نزعات منفعية ضيقة كانت وراء صياغة تلك القوانين.

٣) لأن العقول محدودة الإدراك، ضيقة الآفاق، لا تستطيع استطلاع مستقبل البشرية ومقتضيات التطور الإنساني، وعلاقته

---

(١) محمد شلتوت، من توجيهات الإسلام، ص١٤.

بطبيعة الإنسان، ولذلك رأينا القوانين التي يصنعها البشر سرعان ما تتلاشى وتظهر عيوبها وثغراتها، مما يدل على أنها فصلت على أساس من الجهل بالإنسان ومتطلباته.

٤) حتى وإن فرضنا أن العقول قد اتفقت على نظام معين، وأن الرغبة في خير الإنسانية هي الدافعة إليه، لا الهوى، فإن نطاق تأثير ذلك النظام سيكون ضيقاً، بحيث لا يمس سوى قلوب من صدر عنهم النظام، أما الأمة فتساق إليه عنوة، ولا تتبعه بدافع احترامه وتقديره، بل إنها لا تقف عنده إلا حينما تخشى الوقوع تحت طائلته[١].

على ضوء هذه الحقائق والمعطيات عن طبيعة وحدود العقل البشري، أتطرق لموقف أهل السنة والجماعة من القيم التربوية (أو الأخلاق).

حينما ثارت مشكلة قدرة العقل على التمييز بين الخير والشر، أو الحسن والقبيح، وما إذا كان هذان الأخيران صفتين ذاتيتين في الأشياء، أم أنهما مرهونان برأي الشرع، وقف المعتزلة موقفاً مسرفاً يمجد العقل ويحكم بأن طاقاته غير محدودة، أما أهل السنة فقد «رأوا أن العقل أضعف من ذلك، وأن استطاعته محدودة بإدراك ما يتعلق بشأنه هو، أو أقل من ذلك، وأنه منح القدرة على أن يدرك البرهان على وجود الله والنبوة العامة، ونبوة محمد ﷺ خاصة، ولم يمنح القدرة على معرفة كنه

(١) محمد شلتوت، من توجيهات الإسلام، ١٤-١٥.

الله وصفاته، فلنؤمن بما جاء به أنبياؤه، ولنقف عند ما قالوه»[١].

إن الأصل« في الأخلاق الإسلامية على مذهب أهل السنة، يرجع إلى سلطة خارجية قاهرة هي سلطة الدين، وأساس هذا الدين القرآن الواجب تعليمه وتعلمه.. والصلة بين الدين الإسلامي والأخلاق، عظيمة تبلغ حد التوحيد بينهما»[٢].

إن هذا الموقف الذي استقر عليه أهل السنة والجماعة، وهذا الفهم العميق، وهذا النظر البعيد الذي يدل على فقه صحيح لمسألة الأخلاق -كيف لا وقد استقوه من رسول الله ﷺ- هو ما وصلت إليه عقول الفلاسفة بعد لأي، وبعد مخاض مرير عاشته البشرية ولا تزال، بل بعد أزمات ضربتها في الصميم ومزقت أوصالها، تلك الأزمات التي لم تكن إلا حصيلة لاطمئنان البشرية وركونها لما تمليه العقول المختلطة بالأهواء والثقة العمياء فيه. فلقد وجدنا في العصور الأخيرة كثيراً من الأصوات تنادي بضرورة ارتباط الأخلاق بالدين، وإلا فلن نكون إلا أمام شبح فارغ يضر ولا ينفع.

وضرورة ارتباط الأخلاق بالدين، قائمة على أساسين: الأساس الأول يتعلق بصحة ومصداقية الأخلاق الصادرة من الدين وملاءمتها

---

(١) أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام.

(٢) د. أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام،، ص١١٧.

للفطرة، والأساس الثاني يتعلق بالشحنة القوية التي تتحرك بها الأخلاق عبر النفوس، والتي تستمد قوامها من مبادئ الدين.

وضرورة ارتباط الأخلاق بالدين تنبثق من شيء آخر، ذلك «أن الدين لا يقف عند الدعوة إلى مكارم الأخلاق وتمجيدها، إنه هو الذي يرسي قواعدها ويحدد معالمها ويضبط مقاييسها الكلية، ويضع الأمثلة للكثير من جزئيات السلوك، ثم يغري بالاستقامة، ويحذر من الانحراف، ويضع الأجزية مثوبة وعقوبة على كلا السلوكين نصب العين»[1].

أما الأخلاق النظرية التي يضعها الفلاسفة، فهي تولد باردة لا تجدي فتيلاً في تحريك النفوس وبعث الحرارة فيها، بل إنها تزيدها صقيعاً على صقيع.. لأنها تقوم على أساس واه لا يكاد يثبت أمام عوادي الزمن وصروف الحياة. قال الفيلسوف الألماني "فيخته" الأخلاق من غير دين عبث.. وقال الزعيم الهندي "غاندي" : إن الدين ومكارم الأخلاق هما شيء واحد، لا يقبلان الانفصال، ولا يفترقان عن بعضهما البعض، فهما وحدة لا تتجزأ. إن الدين كالروح للأخلاق، والأخلاق كالجوارح للروح، وبعبارة أخرى: إن الدين يغذي الأخلاق وينميها وينعشها، كما أن الماء يغذي الزرع وينميه»[2].

---

(١) د. يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، ص٢٠٨-٢٠٩.

(٢) نفسه، ص٢٠٩.

إن حقيقة ارتباط الأخلاق بالدين قد أصبحت حاضرة -ويزداد الوثوق واليقين بها يوماً بعد يوم -في أذهان- العقلاء من الغربيين، الذين توصلوا إلى أنه بدون الدين لا يمكن أن تكون هناك أخلاق، وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون(١).

وهذه النتيجة، تثبت لنا تهافت فكرة طالما روج لها أصحاب الفكر العلماني اللاديني، وهي فكرة الضمير، ونشأة هذا الضمير في معزل عن أجواء الدين التربوية.. وبعبارة أخرى، فإن الأبحاث والتجارب التي يزخر بها الواقع نفسه تعطي البرهان القاطع على خرافة الضمير بلا دين، «ذلك أن الإنسان يكاد لا يعطي شيئاً إلا يأخذ في مقابله شيئاً، نقداً أو نسيئة، فنفسه تتطلع دائماً إلى الجزاء العادل على ما قدم.. وقد حاول الفلاسفة الماديون أن يشبعوا هذا الجانب بالأجزية الأخلاقية المجردة عن الدين، وعن طريق ما أسموه "الضمير" الذي يجزي فاعل الخير ومؤدي الواجب بالسرور والرضا والارتياح، الذي يحسه الإنسان بين جنبيه. ولكنهم حاروا كيف يجزى من يضحي بنفسه ويبذل روحه ويموت شهيداً في سبيل الحق؟ إنه لا مجال لرضى النفس وراحتها بعد الموت عند هؤلاء الماديين، والموت عندهم فناء محض. إن الإيمان بالله وبجزاء الآخرة هو الذي يحل هذه العقدة»(٢).

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٩.

(٢) نفسه، ص٢٦١.

وخلاصة القول في هذه القضية: إن الموقف الإسلامي الصحيح كما يمثله أهل السنة والجماعة، يمثل ضرورة قصوى بالنسبة للمجال التربوي الذي ينشد الوحدة، هذه الوحدة التي لا تزال البشرية تفتقدها حتى الآن، بسبب بعدها عن هدي الإسلام ومبادئه السمحة.

إن الإطار الثابت الذي تقدمه التربية الإسلامية بفضل ربطها بين الأخلاق ودين الله القويم، هو الخلاص النهائي من الأزمة التي تصيب التربية في العالم، وتصيب معها نظام الحياة بأكمله.

بداية الصراع

لقد ظلت القيم الإسلامية تهيمن على حياة المسلمين منذ عصر النبوة وعبر العصور التاريخية المختلفة، ولكن بمقادير متفاوتة، كما سبقت الإشارة، إذ بقدر ما كان المسلمون يتشبثون بالينابيع الصافية لدينهم الحنيف، بقدر ما كانت آثارذلك تظهر على سلوكهم، وتعبر عن نفسها أبلغ تعبير فيما كانوا يحققونه من عطاءات ثرية للحضارة الإنسانية في الميادين الإنسانية الخلقية، وكذا في مجال الإبداع العلمي. وظلت منارات الإسلام ترسل إشعاعاتها حتى في بعض الظروف التي تميزت بالضعف والارتخاء، إلى أن جاءت الضربة القوية من جانب الاستعمار، الذي بدأت طلائعه السوداء تخيم على ربوع العالم الإسلامي، فبدأت القيم الإسلامية في التلاشي، وبدأ كيان

المجتمع الإسلامي في الانحلال.

وإذا كانت المعاول التي استخدمها الاستعمار (التنصير، البعثات الدراسية إلى الخارج، وسائل الإعلام، نشر المدارس الأجنبية في البلدان الإسلامية، الاستشراق) قد تضافرت في الإجهاز على الكيان الإسلامي وعلى الشخصية الإسلامية، فإن حركة الاستشراق الماكرة، قد كان لها الدور الفعال في بث السموم ونشر الأباطيل التي تفعل فعلها المدمر في عقل المسلم ونفسه، وتحوله إلى جسم مشلول أو مقطوع الصلة بأمته وكيانه الحضاري الأصيل، بل أكثر من ذلك تجعله يتحول إلى عنصر هدم وتدمير في بناء الأمة، بحيث يتنكر لها ويناصبها العداء.

لقد وجه الدارسون للإسلام والحضارة الإسلامية من المستشرقين، جهودهم إلى تمهيد نفوس المسلمين لقبول واستقبال الهيمنة الأوروبية بكامل الرضا والاطمئنان، والإقرار لها بالولاء. ومعنى ذلك، بل وسيلة ذلك هي إضعاف القيم الإسلامية عن طريق تقديم شروح وتأويلات تعسفية ومشوشة لمفاهيم الإسلام وقواعده، وصولاً بشباب المسلمين إلى مرحلة الشك واهتزاز اليقين بتعاليم الإسلام وقداستها، فـ "رينان" على سبيل المثال يصور عقيدة التوحيد في صورة قاتمة، تجعل منها عامل قلق وحيرة، وهي التي توحد القلوب والمشاعر، وتصنع التماسك بين الأفراد.

إن السموم الناقعة التي دأب المستشرقون – ويعمل تلامذتهم الآن في ديار المسلمين– على نفثها، قد آتت أكلها وأعطت ثمارها المرة في صفوف أجيال الشباب الإسلامي.. وأخطر وسيلة اتخذت لذلك، قنوات التعليم التي يمارس من خلالها المعلمون والأساتذة المستلبون أثرهم السحري، فيخرج على أيديهم أجيال فارغة الفؤاد، بليدة الإحساس، يصدق عليها بحق قول المفكر والشاعر الإسلامي الكبير "محمد إقبال" رحمه الله: «إن الشباب المثقف فارغ الأكواب، ظمآن الشفتين، مصقول الوجه، مظلم الروح، مستنير العقل، كليل البصر، ضعيف اليقين، كثير اليأس، لم يشاهد في هذا العالم شيئاً، هؤلاء الشبان أشباه الرجال ولا رجال، ينكرون نفوسهم، ويؤمنون بغيرهم(...) إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية وأصبحوا في خبر كان، أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم، شغفتهم الحضارة الغربية، فيمدون أكفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير، ويبيعون أرواحهم في ذلك (...) إن الإفرنج قد قتلوه من غير حرب وضرب، عقول وقحة، وقلوب قاسية، وعيون لا تعف عن المحارم، وقلوب لا تذوب بالقوارع، كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب، يطوف حول الماديات، قلوبهم لا تتلقى الخواطر المتجددة، أفكارهم لا تساوي شيئًا، حياتهم جامدة

واقفة متعطلة»[1].

هذه هي الوضعية الأليمة المحزنة التي آلت إليها نتيجة الصراع بين حضارة الإسلام، بل بين مسلمين لم يحفظوا حضارتهم ولم يراعوا ميثاق وعهد ربهم، وبين حضارة الغرب... ولكن لسوء حظ هذا الغرب الشارد، فخزائن الإسلام لم تنفد، وجذوة الإسلام لا يكاد يخبو أوارها، حتى تعيد الكرة من جديد، فتينع وتتوهج لاستعادة الحياة الإسلامية، على أساس القيم الإسلامية.. فما هي هذه القيم التربوية، وما مقابلاتها في المجتمع المعاصر؟

هذا ما سأتناوله في الفصل القادم بإذن الله.

(١) نقلاً عن أبي الحسن الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة، ص٥١-٥٢.

الفصل الثالث

القيم التربوية بين التصور الإسلامي والتصور المادي

القيم التربوية في التصور الإسلامي

لمسنا من خلال الفصل السابق، الإطار التصوري الذي تتحرك في أرجائه القيم التربوية الإسلامية، بطريقة يطبعها التوازن والشمول، والحركية والإيجابية، وما ذاك إلا بفضل ارتباطها القوي بالفطرة، التي هي الخزان أو الينبوع الذي يصدر عنه السلوك الإنساني، مدعومًا في ذلك بضوابط الإرادة والحرية التي لا تتعارض في شيء مع الالتزام بضوابط الشرع.. ولمسنا أيضًا كيف أن تلك القيم الإسلامية قد كانت لها السيادة في المجتمع الإسلامي الحق، خاصة في العهد النبوي وعصر الخلفاء الراشدين، معبرة عن نفسها في نماذج مجسدة غاية في التسامي والعلو، حتى جاز أن يسمى جيل ذلك العهد بالجيل القرآني الفريد.

ورأينا أن القيم التربوية الإسلامية لا يمكن أن تنفصل عن الشرع، فهي بالشرع تقوم وتعطي أكلها، وبغيره لا يقوم لها كيان ولا ينتشر لها إشعاع في دنيا الإنسان. إلا أن الأمة الإسلامية قد جاء عليها حين من الدهر، فقدت فيه ارتباطها بذلك المعين الخالد من القيم، في زحمة الصراع الحضاري الذي أفلتت فيه الزمام... وكم نالها من التخبط والتيه، من جراء ذلك الصراع المرير وذلك الوضع الرهيب. ومن لطف

الله عز وجل بهذه الأمة، أنها لا تغفو إلا لتفيق.. فها هي ذي تفتح عينيها وتنفض التراب عن آذانها مؤذنة باقتراب البعث الجديد. ولن يكون هذا البعث إلا بخلع ربقة التبعية والاستلاب.. والخروج من جحر الضب الذي دخلته... ولن يكون ذلك إلا بالرجوع إلى معين القيم، تغرف منه ما ينقع غلتها ويشفي غليلها... فما هي هذه القيم التربوية الإسلامية؟

كتمهيد للإجابة على هذاالسؤال، وتحليل أبعاده، لا بد من التعرض لمسألة تصنيف القيم، أي الكيفية التي يتم بها -وبتعبير آخر- المقاييس المتخذة في هذا التصنيف. الواقع أن التصنيفات تختلف حسب موقع أصحابها ووضعهم من مسألة الاعتقاد أو الرؤية التي ينظرون من خلالها إلى العالم، رغم ما هنالك من بعض القواسم المشتركة.. إلا أنه عندما يتعلق الأمر بالرؤية الإسلامية، فإن الباحثين الذي ينتمون إليها، يتفقون في جوهر التصنيف مهما اختلفوا في الملامح والخطوط الشكلية.. وأسوق هنا مثالاً عن أحد التصانيف المستعملة أورده الأستاذان د. عبد الحميد الهاشمي، ود. فاروق سيد عبد السلام، في بحث لهما عن (البناء القيمي للشخصية كما ورد في القرآن الكريم)، كأساس لتصنيف القيم الموجودة.. لقد صنف الباحثان القيم على مستويين:

١) تصنيف ثلاثي، يمثل الأبعاد الثلاثة الرئيسة، وهي القيم

المتصلة بعلاقة الإنسان بربه، وتلك التي تتصل بعلاقة الإنسان بنفسه، والتي تنظم العلاقة بين الإنسان والآخر.

٢) تصنيف سداسي، يصنف القيم تبعًا للأبعاد الست التي ينقسم إليها أي بعد من الأبعادالثلاثة السابقة وهي : (أ) البعد الروحي، (ب) البعد البيولوجي، (جـ) البعد العقلي المعرفي، (د) البعد الانفعالي العاطفي، (هـ) البعد السلوكي والأخلاقي، (و) البعد الاجتماعي الخاص والعام(١).

وبهذين التصنيفين معًا، توصل الباحثان إلى ثلاثين قيمة أساسية.

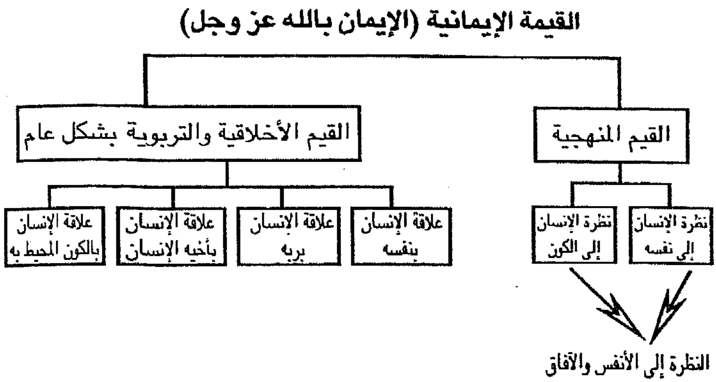
أما الدكتور حسن علي حسن فلم يلجأ إلى أي تصنيف في دراسته المعنونة بـ (المفارقة القيمية والتغير الاجتماعي في مجتمع إسلامي)، وهي دراسة استكشافية تحليلية لواقع المجتمع المصري المعاصر، ولكنه اكتفى باختيار مجموعة محدودة من القيم على ضوء مسح قام به لمجموعات القيم المتمثلة في دراسات "كاظم" (١٩٧٠) و"روكيتش (١٩٧٣) . . وقد توصل د. حسن علي حسن إلى نتائج مهمة.

أما الطريقة التي اتبعتها في هذه المحاولة، فهي لا تختلف في العمق مع التصنيف الذي استخدمه صاحبا الدراسة الأولى . . .

---

(١) انظر د. عبد الحميد الهاشمي ود. فاورق عبد السلام، البناء القيمي للشخصية كما ورد في القرآن الكريم، ندوة خبراء أسس التربية الإسلامية، مكة المكرمة (١١-١٦/٦/١٤٠٠هـ)، ص١٣.

وتندرج تلك الطريقة تحت طائلة الخطاطة التالية:



ويقصد بالقيمة الإيمانية، تلك العقيدة المتكاملة التي يتحرك بها المسلم في مجال الحياة، عابداً لربه ومجاهداً في سبيله، وساعياً في الخيرات بإذنه.. وهذه العقيدة، إيمان وثيق بالله لا يتزعزع، وثقة تامة في عدله وقضائه، وتصديق شامل بكتبه ورسله، ومعرفة يقينية باليوم الآخر على نحو ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة. والإيمان الحق بالله عز وجل، لا بد من توفره على معرفة حقة بصفات الله تعالى، وإلا ما كان إيماناً ولا كان معرفة بالخالق جل جلاله. ولإيضاح هذه المسألة أضرب عليها مثالاً ساقه "أبو عمران"[١]، في القيروان، وذلك عندما

(١) من دروس التفسير للأستاذ مصطفى بنحمزة.

أثيرت أمامه مسألة الصفات، فطرح السؤال: هل يعرف النصارى الخالق؟ فأجاب بعض الحاضرين بالإيجاب، وأجاب بعضهم الآخر بالسلب وطلب من أبي عمران قول محكم في ذلك.. فقال مجيباً:

لو سألتم عني رجلاً: هل تعرف أبا عمران؟ فقال: رجل طويل يبيع التمر في سوق ابن هشام بالبصرة، هل هذا يدل على معرفة هذا الرجل بي؟ قالوا: لا، لأنهم وصفوك بغير صفتك، فقال: إذن الذين يجهلون الصفات هم جاهلون بالموصوف، فالذي ينسب لله العجز والجهل لا يعرف الله عز وجل.

فالإيمان بالله تعالى، لا يكفي فيه أن نؤمن بالله موجوداً... وأريد هنا أن أُلح على الأهمية القصوى لهذه المسألة في درس العقيدة في مؤسساتنا التعليمية والتربوية، حتى نكون أمام نشء لا تنطلي عليه خدعة اليهود والنصارى عند قولهم بأنهم يشتركون مع المسلمين في العقيدة، والحال أن الهوة التي بيننا وبينهم كالتي بين السماء والأرض، فشتان بين من يصف الله عز وجل بصفات الكمال كالقدرة والعلم والإرادة والحياة... إلخ، وبين من ينسب لله العجز أو ينسب إليه الولد..

إن الإسلام بمجيئه بعقيدة الإيمان بالله، بذلك الوضوح وتلك الدقة والبساطة في نفس الوقت، قد شكّل نقلة واسعة للإنسان من حياة التشتت في العقل والنفس، إلى حياة يطبعها التماسك والوحدة

والانسجام والتناغم بين كل مكوناتها، بل إن الشعور الذي ينتاب الإنسان الذي يعيش في أجواء هذه العقيدة، هو في أعلى درجة من السمو.

إن خيوط هذه العقيدة تضرب بإشعاعاتها في كل اتجاه، وتفجر في الإنسان كل مكوناته لتجد فسحتها وانطلاقتها في كامل أرجاء الوجود... حتى ليمكن القول: بأن نسيج القرآن الكريم نفسه، ومعطياته المعجزة من بدئها حتى منتهاها، في مجال العقيدة والتشريع والسلوك والحقائق العلمية، تمثل نسقًا من المعطيات المعرفية كانت كفيلة بمجرد التعامل المخلص الذكي المتبصر معها، أن تهز عقل الإنسان (...)، وأن تخلق في تركيبه خاصة التشوق المعرفي لكل ما يحيط به من مظاهر ووقائع وأشياء[1].

فما كانت هذه العقيدة لتظل متحجرة في النفوس، جامدة في العقول دون أن تكون لها ثمرة تذاق، ومن ثمار تلك العقيدة الربانية، صياغة الروح المنهجية في الإنسان، وهو ما عبر عنه "د. عماد الدين خليل" بالنقلة المنهجية، تلك التي تكتسي أهمية بالغة في مجال البناء الحضاري.. وقد عبرت عن نفسها من خلال ثلاثة اتجاهات رئيسة: السببية، القانون التاريخي، منهج البحث الحسي التجريبي[2].

بل إن العقيدة في الله عز وجل لتستقر في النفوس وتثبت في

---

(١) د. عماد الدين خليل، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص٤٥.
(٢) نفسه، (انظر ص٤٨).

الأذهان، لا بد من إنارتها بالنظرة السببية، التي تربط الأسباب بالمسببات، لتنتهي في نهاية المطاف إلى مسبب الأسباب الذي تؤول إليه السلسلة لا محالة. «إذ بدون هذه القدرة على الربط بين الأسباب والمسببات، فإن العقل المؤمن لن يكون قادراً على التحقق بالقناعات الكافية، ولن يكون بمقدور آيات الله المنبثة في الطبيعة والعالم والوجود، أن تحدث فينا هزة الإيمان العميق المتمخض دومًا عن اكتشاف الارتباط المحتوم بين معجزة الخلق وبين الخالق»(١).

كما أن هذا الاكتشاف لا بد من أن يمر عن طريق تنمية القدرة على التأمل في الأنفس وفي آفاق الطبيعة وما تزخر به من ظواهر... وعندما نقول القدرة على التأمل، فبدهي أنها تتم عبر الحواس المختلفة، وهي القنوات التي تنفذ منها أشعة المعرفة من خلال الانطباعات والصور التي تسجلها وتبعث بها إلى حجرة العقل، حيث تكمن أجهزة الإدراك والتخيل والتحليل.

ولقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقائق في آيات كثيرة، أذكر منها قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣). وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠)، وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ

(١) نفس المرجع، ص٤٩.

مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦)، ذلك «أن التفكير النظري المجرد لا يؤدي إلا إلى الجدل والمراء والبعد عن واقع الحياة، ومن ثم ربط القرآن بين الفكر وبين آيات الله في الكون ونظمه ونواميسه، وحذر من الانحراف عن النهج، وجعل من التاريخ عبرة للبشرية، وطالب بالسير في الأرض والنظر في مصائر الأمم والحضارات السابقة، والتفكير في سبب هلاكها وفنائها: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾»(١) (غافر: ٢١).

وهنا نصل إلى الاتجاه الثاني من الاتجاهات الثلاثة المذكورة أعلاه، والمتعلق باكتشاف السنن المحركة للتاريخ، والتي في غياب إدراكها حق الإدارك وفهمها غاية الفهم، يصبح الإنسان كريشة في مهب الرياح، ويظل سلوكه، وتظل حركته كلها عرضة للعشوائية والتيه.. وعلى العكس من ذلك، فإن حضور المعرفة بالتاريخ في الأذهان، والوعي بالسنن المتحكمة في سيره، الضابطة لحركته، المقررة لنتائجه -بإذن الله- من شأنها أن تجعل الإنسان مالكًا لناصية التاريخ، ممسكًا بمقاليده، يسخره في الوجهة الإيجابية البناءة. إن (المنهج) الجديد الذي يطرحه القرآن الكريم، يؤكد أكثر من مرة على أن (التاريخ) لا يكتسب أهميته الإيجابية إلا بأن يتخذ ميدانًا للدراسة والاختبار، نستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر أو

---

(١) محمد شديد، منهج التربية في القرآن.

المستقبل إلا على هداها»[1].

وهذه بعض النماذج من الآيات التي تؤكد على هذا المنهج، وترسي أسسه وقواعده: قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٢)، ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ (الكهف: ٥٥). وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

وإذا نحن أجلنا فكرنا في القرآن الكريم وتدبرنا في آياته الكريمة، وجدنا الكثير منها يؤكد هذه (القانونية) التاريخية، التي تخضع لها أحداث التاريخ والمجتمع، مما يعطينا مؤشرات واضحة على هذا التمايز الموجود بين نوعين من المحاسبة، النوع الأول يتعلق بالمحاسبة الجماعية التي تجسدها الآية المذكورة، حيث إن المحاسبة هناك تنصب على القوم (ما بقوم)، ويؤكد هذا المعنى مثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٢٥)، ويبرزه حديث رسول الله ﷺ عندما سئل: «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **نعم إذا كثر الخبث**»[2]. أما المحاسبة من النوع الثاني فهي المحاسبة الفردية، وتكون في الآخرة على عكس المحاسبة الأولى، إذ هي محاسبة دنيوية، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُ مَا

---

(١) د. عماد الدين خليل، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص٥٢.

(٢) متفق عليه.

يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (مريم: ٨٠).

ولعل من القضايا التي يجدر التنبيه لها والتأكيد عليها في هذا السياق، هو أنه لا مجال مطلقًا لتوهم وجود أي تعارض بين فكرة التاريخ وفكرة اختيار الإنسان وإرادته الحرة، الأمر الذي يعرض الإنسان في صورة سلبية، ويجعل منه أداة طبيعية وجسماً خفيفًا يجرفه تيار التاريخ... وهذا المنحى الخاطئ هو ما ذهب إليه كثير من المفكرين الغربيين، مما جعلهم يضحون بحرية الإنسان باسم الموضوعية التاريخية. ولكن غاب عن هؤلاء المفكرين أن السنن التاريخية تختلف في طبيعتها عن السنن التي تتحكم في الظواهر الطبيعية!

فتلك السنن التاريخية على خلاف السنن السارية في ظواهر الطبيعة، تتسم بكونها قضية شرطية، وهي بهذه الخاصية الجوهرية والنوعية كثيراً ما تعبر عن إرادة الإنسان واختياره. من هنا يتبين لنا بشكل دقيق أن الإنسان هو الذي يمثل محور القضية الشرطية، وهذه القضية تمثل علاقة بين الشرط والجزاء... هذه النقطة تتعلق بقضية حرية الإنسان واختياره، وهي من أبرز القيم التربوية.

والاتجاه الثالث هو الاتجاه الخاص بالبحث الحسي التجريبي، الذي وجد المسلمون أنفسهم في إطاره بكل فاعلية، بتأثير من آيات الله التي ظلت تطرق الأذهان وتصوب الأنظار إلى ملكوت الله عز وجل

وبديع صنعه.. إن كشف القرآن لهذا المنهج أمام أبصار المسلم، زوده بكسب معرفي قيم.. «لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر، بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق (النظر الحسي)، إلى ما حولهم، ابتداء من مواقع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون، وأعطى للحواس مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب، قال له: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦)»[١].

فالإنسان المسلم بموجب هذه الآية، وكثير غيرها، مأمور بأن يستخدم ما وهبه الله من حواس متنوعة في سبيل استطلاع ما يحيط به من ظواهر هذا الكون، يستكنه خباياها، وصولاً إلى ضبط قوانينها، بما يساعد على تحقيق وظيفته المنوطة به.. «إننا بإزاء حركة حضارية شاملة، تربط بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع والكشف، بين التلقي عن الله والتوغل قدمًا في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وغوامضها، بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان على الأرض وبين تسخير طاقات العالم لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم على المستوى المادي. ولم يفصل الإسلام يومًا بين هذا وذلك»[٢]

إن الإسلام من خلال ما سبق، حريص عبر توجيهاته على مستوى

(١) د. عماد الدين خليل، مرجع سابق، ص٥٣.
(٢) نفسه، ص٦١.

الاتجاهات الثلاثة، على جعل العقل الإسلامي في منأى عن العقيدة العبثية في الكون، التي توصد منافذ إحساسها وإدراكها، وتغمض عينيها عن رؤية السنن وعلاقة الطاقات الإنسانية بها.. فالذي «لا يرى هذه العلاقة وهذا الارتباط، لا يمكن أن يقدر المسؤولية الدنيوية ولا المسؤولية الأخروية، أي لا يقدر المسؤولية الاجتماعية ولا المسؤولية الفردية»(١). ولكم جسد الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه، ذلك الحرص من خلال دعوته الحارة إلى الوقوف عند ظواهر الكون، نعمل فيها فكرنا وتدبرنا بكل إجلال وخشوع، ليزيد إيماننا قوة، وعقولنا توقداً واستنارة، ونفوسنا عزمًا على السير في طريق الله، والمضي على صراطه المستقيم.

لقد «كانت حياة الرسول ﷺ فكرًا متصلاً، ودعوة وتربية على النظر والتفكير، يبيت ليله عابداً باكيًا مفكرًا في آلاء الله وخلقه. قال عبد الله بن عمر لـ "عائشة": أخبرينا ما رأيت من رسول الله؟ فبكت، وقالت: كل أمره كان عجبًا، أتاني في ليلة حتى مس جلده جلدي، ثم قال: **ذريني أتعبد لربي عز وجل**، فقلت: والله إني لأحب قربك وأحب هواك. فقام وتوضأ، ثم قام يصلي، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى، ثم اضطجع فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، قال:

(١) جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم.

يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال: **ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ هذه الليلة**: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠–١٩١)، ثم قال: **يا بلال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر**»[(١)][(٢)].

وخلاصة الأمر في هذه القيم المنهجية التي استهدف الإسلام بثها في كيان الإنسان المسلم، أن الإسلام سعى بواسطتها إلى بناء الشخصية العقلية الذكية، القادرة على الاستفادة من كل ما زودت به من جوارح وإحساسات وملكات في إطار من الأصالة والمسؤولية، التي تغذيها القيمة الإيمانية بشكل يضمن عصمة الإنسان من الافتتان بفعل ما يتجمع بين يديه من إبداعات أساسها استخدام قوى العقل في تشكيل مادة الكون وطاقاته المسخرة.

ولا يفوتني في خلاصة هذه النقطة أن أشير إلى مسألة مهمة، ترتبط بما ألحت إليه من ضرورة ضبط حدود حركة العقل، وهي مسألة التفقه الذي هو «خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير، تجعل الإنسان أكثر وعيًا لما يحيط به، وأعمق إدراكًا لأبعاد وجوده، وعلائقه في

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، (عن تفسير ابن كثير، ١/٤٤١).

(٢) محمد شديد، مرجع سابق، ص١٤٠.

الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دومًا، مستعداً للحوار المسؤول إزاء كل ما يعرض له على صفحة العالم والوجود: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٧٨).. لقد أكد القرآن على الأسلوب الذي يعتمد (البرهان، والحجة، والجدال الحسن) للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص، استناداً إلى المعطيات الحسية الخارجية المتفق عليها، والقدرات العقلية التي تعرف كيف تتعامل مع هذه المعطيات: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١)[١].

إننا في ضوء المعطيات العقدية الإيمانية والمعطيات المنهجية، مؤهلون لأن نفهم طبيعة الموقف الذي يتخذه الإنسان المسلم من الكون، وكيفية التعامل مع أحداثه وظواهره. «فالمسلمون لا يمكنهم أن ينسبوا شيئاً للصدفة أو للأقدار العمياء. فالزلازل والطواعين والجفاف والكوارث -مهما تكن فواجعها وآلامها- من فعل الله، وأنها مرادة الله تعالى من أجل هدف طيب قد لا يظهر للإنسان في الوقت الحاضر. وما دامت من فعل الله، فإن المسلم لا ينهار أمامها، لأنه يعرف أن الله الذي قدرها وأوجدها هو في نفس الوقت الحافظ الرحيم بعباده. لهذا فإنها في نظر المسلم ابتلاء من الله، يختبر بها عباده..

---

(١) د. عماد الدين خليل، مرجع سابق، ص٥٩-٦٠.

وهذا الابتلاء يظل دائمًا خاضعًا لمقتضى القوانين والنواميس التي بثها الله في الكون، ليصل بهم من خلالها إلى مزيد من الثبات والإيمان والتفاؤل بالمحصلة النهائية. هذا الجانب من العقيدة الإسلامية هو على وجه التحديد ما تحتاجه البشرية في مواجهة المآسي»[1].

إن هذه المعطيات التي تتعلق بالقيم المنهجية في علاقتها وارتباطها بالقيمة الإيمانية العقدية، تندرج جميعًا في إطار النظر إلى النفس والآفاق، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣).

القيم التربوية المادية (في المجتمع المعاصر)

بعد انتهائي من الحديث عن القيم التربوية في الإسلام، أشرع في التطرق إلى القيم التربوية في المجتمع المعاصر، وأول نقطة تستوقفنا في هذا الصدد، هي الأسس الفلسفية التي تقوم عليها تلك القيم.. فما هي هذه الأسس؟ وبعبارة أخرى: ما الذي يحدد النظرة المادية إلى الكون والإنسان؟

أ) تنظير أسس القيم التربوية المادية:

لقد تشكل فكر الغرب ومنظوره للكون والإنسان والحياة، في خضم مؤثرات تاريخية تمتد بجذورها إلى آماد بعيدة، وقد عرف ذلك المنظور عدة تطورات، انتهت إلى صورته الحالية.. «فقد انتقل الغرب

(١) د. إسماعيل راجي الفاروقي، مرجع سابق، ص٦٨.

من الإيمان بآلهـة اليونان والرومان الوثنية، إلى الإيمان النصراني ضمن المفاهيم الكنسية والنظام الكنسي (الأكليروس)، ثم أخيراً إلى الإلحاد والمبالغة في الاتجاه العقلي في القرن التاسع عشر الميلادي، مما أدى إلى التفلت من الكنيسة ومعتقداتها، حيث اعتبرت حليفة للإقطاع والرجعية، ومخدرة للشعوب ومناقضة للعلم، فظهرت العلمانية والنزعة غير الدينية التي انحرف في أحضانها منهج البحث الغربي عن أصوله الإسلامية، فلم يعد يعترف بعالم الغيب أو ماوراء الطبيعة (الميتافيزيقية)، وإنما يعترف بالعالم المادي المحسوس وحده»[1].

ومن هنا، فإن الحضارة الغربية المعاصرة، تنكر وجود الله والدار الآخرة، وتؤكد هيمنة الإنسان. وقد كانت هذه النتائج في الحقيقة، بالإضافة إلى جذورها التاريخية المشار إليها، ثمرة لذلك الفصام النكد بين الحضارة الغربية والكنيسة الضالة... وعبرت تلك النظرة اللادينية عن نفسها في مجموعة من النظريات الفلسفية، تلتقي كلها عند قاسم مشترك، كالوضعية التي تنظر إلى الإنسان باعتباره صانعاً لقيمه ومتخذاً لنفسه ديناً وضعياً يستغني به عن الأديان والقيم القديمة، والماركسية التي جعلت من الإنسان كائناً يتشكل مصيره في ضوء تغير أدوات الإنتاج، فأخضعت سلوكه من ثم للعامل الاقتصادي، والداروينية التي نظرت إلى الإنسان نظرة حيوانية، على أساس التشابه الظاهري في

---

(١) د. أكرم ضياء العمري، التراث والمعاصرة، ص٦٦.

القانون الواحد الذي خلق الله تعالى به الإنسان وسائر الحيوانات، مغفلة الفرق النوعي بين الحيوان والإنسان الذي يتمثل في تميز الإنسان بالعقل والإرادة... وهكذا أثرت هذه النظرة تأثيراً خطيراً على الموقف من القيم والإنسان، ظهر من خلال «إنكار ثبات الصفات الخلقية والإنسانية والقيمية، وانتهت إلى اعتبار الإنسان حيواناً اجتماعياً متطوراً، لا ضوابط لتغييره، إلا في إطار تكوينه الحيواني»[1].

ويمكن أن نجمل العناصر المشتركة بين الاتجاهات الغربية في النظرة إلى التاريخ والإنسان فيما يلي:

أ- إن النفس الإنسانية لا تتمتع بحرية الإرادة، لأنها مقيدة بحدود الزمان والمكان.

ب- إن الوجود الجماعي الموضعي هو وحده الوجود الحقيقي، أما الوجود الفردي المتنقل فما هو إلا وهم.

جـ- إن القوة الاجتماعية هي المسؤولة مسؤولية كاملة عن تشكيل قدرة الإنسان، وليست الذات الإنسانية.

د- لا توجد حقيقة خالدة، ولا يوجد معيار موضعي عام للأخلاق والعدل. وترتبط هذه المفاهيم الغربية بالزمان والمكان، أي أنها نسبية، ومن ثم فليس هناك قانون عام[2].

---

(١) د. محسن عبد الحميد، المذهبية الإسلامية، ص٧٣.

(٢) د. سيد سجاد حسين ود. سيد علي شرف، أزمة التعليم الإسلامي، ص٩١.

إن تأملنا في الاتجاهات أو النظرات السابقة التي تسري روحها في كل من النظام الرأسمالي والماركسي والشيوعي، يبرز لنا تركيز هذين الأخيرين اهتمامهما على الجانب الخارجي للإنسان، أي ما يتعلق بحاجاته المادية من أكل وشرب وثروة واكتشاف لقوانين الطبيعة ومعالجة لمشكلات الإنتاج والطبقات.. ويعتقد النظام الرأسمالي والشيوعي أن الاهتمام بالقضايا المذكورة كفيل بحل مشكلة الإنسان، «وأن التغيير الخارجي يؤدي حتماً إلى التغيير الداخلي، وأن تحسين وضع الإنسان المادي والاجتماعي يؤدي حتماً إلى تحسين روحيته وأخلاقه وقيمه وإنسانيته. وهذا صحيح إلى حد.. فتأمين ضروريات العيش تحسن وضع الإنسان، ولكن الإنسان في النهاية يستيقظ وينتبه للهم الأساسي الذي يضرب نفسيته، الهم الذي اكتشفته الفلسفة الوجودية ولم تستطع معالجته، لأنها ألغت الدين والقيم الروحية»[1].

تحديد المراد بالقيم التربوية المادية:

نقصد بالقيم المادية تلك القيم المنبثقة من التصور المادي، أي القيم التي تأخذ في حسبانها حاجات وتطلعات الإنسان المادية، على اعتبار أنها وحدها الموجودة، أما الجانب الروحي فيبقى عرضة للإهمال لأنه ليس معترفًا به أصلاً... وما يبدو في إطار النسق القيمي الغربي ذا مسحة روحية، فإنه لا يحمل تلك الصفة عن حق، لأنه يفتقد إلى الشحنات الروحية الحقة التي تمده بقوة الوجود والاستمرار، فقد

---

(١) عبد اللطيف بري، الإنماء الروحي والإصلاح الاجتماعي، ص٤٤.

يتحدث أصحاب التصور المادي عن بعض المعاني الإنسانية كالعدل والحرية والمساواة والتعاون والكرم وغيرها، ولكن هذه القيم تفقد مضمونها في غياب الجانب الروحي الذي يشكل معينها الثري ورصيدها الدائم، الذي لن يكون لها من دونه وجود.

ب) القيم التربوية المادية:

١- القيم العقدية: إن العقيدة في ظل النظريات الفلسفية والتربوية في الغرب، تتشكل طبقًا للرغبة.. فالرغبة في شيء معين هي التي تولد في العقل حوافز الاعتقاد بالكون أو الوجود حسب مقتضيات تلك الرغبة. وعلى المناهج التربوية هناك أن تيسر للعقل سبيل هذه الحوافز[١]. ومن هنا فلا مفر من أن يقع الإنسان في الغرب عرضة لتضارب العقائد، ونهبًا للتيارات التي توزع عقله وتشتت قواه، فيشعر وكأنه في دوامة عاصفة: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١).. والنظريات الفلسفية التي سبق أن تطرقت إليها، دليل واضح على هذا.

٢- القيم المنهجية الموجهة لنظرة الغرب: لقد رأينا عند التطرق إلى القيم المنهجية في الإسلام، أن تلك القيم مستوحاة من توجيهات القرآن الكريم، الذي حرك العقل السليم ليتدبر في ملكوت السموات والأرض، ويتأمل في آفاق خلقه الواسعة، ولينتهي به ذلك

(١) د. محمد سعيد رمضان البوطي، منهج تربوي فريد في القرآن، ص٧.

الجهد الفكري التأملي إلى وضع يده على دلائل النظام وآيات التنسيق التي تقوده إلى اليقين بوجود تلك القوة الخفية المدبرة لهذا الكون . . فالروح المنهجية التي تشبع بها علماء الإسلام قد استمدت لحمتها وسداها من داخل الإسلام، ولم تكن في يوم من الأيام تعيش في انفصال عنها .

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للمسلمين، فإن القيم المنهجية عند الغربيين قد عرفت انفصالاً عن الدين، ونمت وتطورت في معزل عنه .

فإذا تعلق الأمر مثلاً بالمنهج التجريبي ، فإن عالم الطبيعة الغربي يقف عند حدود القوانين المادية التي تكشف أبحاثه وتجاربه عنها ، ولا يتجاوز إلى ما ورائها، أي إلى علة العلل أو مسبب الأسباب وهو الله عز وجل. أما إذا كان المجال هو مجال علم الاجتماع، فإننا نجد عالم الاجتماع الغربي أبعد ما يكون عن التوجه بأشعة النقد إلى الأهداف والغايات النهائية للمجتمع، وقصارىٰ جهده، إنما يتركز على الوسائل المؤدية إلى تحقيقها، فهو إذن يقف عند وصف تلك الأهداف ليس إلا . . . وهذا على عكس عالم الاجتماع المسلم الذي يظل حريصاً على القيم الإسلامية، بحيث يبادر إلى نقد كل الأوضاع والتغييرات

الاجتماعية التي تتعارض مع طبيعة الإنسان وفطرته[1].

إن إفراغ العلوم من شحنتها الدينية، أصابها بالعقم والانحطاط، وأوصلها إلى الطريق المسدود، «فعلى الصعيد الفردي، دعت العلوم الاجتماعية إلى الاعتماد على الذات، وتقويتها لأنها منبع القيم المستقل والمرجع الأخير لوجود الإنسان ووعيه بوجوده، وأصبحت الحرية في نظر الغرب كافة متساوية مع الممارسة، التي لا تخضع لمبدأ أو قانون، بل تصدر عن الإرادة الشخصية مجردة»[2].

نخلص من المعطيات السابقة إلى أن أحادية النظرة التي حكمت الرؤية المنهجية عند الغربيين، سواء تعلق الأمر بعلوم الطبيعة أو علوم الإنسان، أفضت بشكل حتمي إلى أزمة خانقة، عبرت عن نفسها أبلغ تعبير فيما يصيب الغرب من انتكاس على مستوى الأخلاق والعلاقات الإنسانية بصفة عامة، بعبارة أخرى في القيم التي تسود تلك العلاقات.

وفيما يلي نظرة على بعض تلك القيم المنبثقة عن رؤية الغرب للحياة والكون والإنسان.

القيم التربوية المادية المنبثقة من التصور العقدي والمنهجي:

■ **قيمة الحرية وموقف الغرب منها:** لقد كانت الحرية دومًا

(١) د. سيد سجاد ود. سيد علي شرف، مرجع سابق، ص٩٨ بتصرف.

(٢) إسماعيل راجي الفاروقي، التحرك الفلسفي الإسلامي الحديث، المسلم المعاصر، عدد٣٩، ص١٤-١٥.

ضرورة من الضرورات النفسية في شعور الإنسان، ظلت كذلك عبر التاريخ، وفي جميع المجتمعات، فمسألة الحرية مسألة وجودية ذات علاقة أصيلة ووثيقة بكيان الإنسان... ومن هنا كان إرساء مفهومها على أساس الوضوح والموضوعية، مدعاة لثبات ووضوح حركة الإنسان في الكون، وسيرها في الاتجاه السديد والمثمر.. فهل كان لقيمة الحرية في المجتمع المعاصر حظ من تلك الشروط؟

إن واقع الفكر والحياة في مجتمع الغرب ينبئ أن الحرية هناك تنفصل عن الإحساس بالمسؤولية، وتتم في غياب أدنى شعور بالخضوع للمحاسبة، أي في غياب الاعتقاد بوجود الله عز وجل... بل إن الحرية هناك في تلك المجتمعات لا تكاد تجد لها أثراً في النفوس في مفهومها السليم وعمقها الأصيل، حتى إننا لا نجانب الصواب إذا حكمنا على الفرد في ظل مجتمع الغرب بأنه محروم من نعمة الحرية، محكوم عليه بسجن قاتم، فإذا نحن استنطقنا مضامين وأشخاص ركام المسرحيات التي ألفها كتاب (غربيون) وجدناها صادقة تعكس لنا مدى ثقل الحياة والواقع على كاهل الإنسان الغربي، بحيث إن شعوراً بالاختناق والتمزق لا ينفك يلاحقه في كل لحظة من لحظات حياته.

وإذا نحن التفتنا -ضمن نفس الحضارة- إلى الموقف الماركسي، وجدناه يكبل حرية الإنسان بما يسمى بالحتمية التاريخية، التيْ تترجم عن نفسها في صورة الصراع بين وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج، فالإنسان إزاء هذه الحتمية التاريخية لا يملك أي هامش للفعل والحركة إلا أن يحني رأسه ويخضع لمقتضيات ونتائج الصراع.

إننا إذا أدركنا سلطان الإعلام الرهيب ودوره التربوي في المجتمع المعاصر، وعرفنا أن ما تتفتق عنه قرائح الكتاب يتحول إلى مادة إعلامية تعزز بأحدث التقنيات التي توصلت بها التكنولوجيا، إذا أدركنا ذلك، أدركنا مدى الإيحاء الخطير الذي يتسلل إلى نفوس وأذهان الناس في الغرب فيما يتعلق بالموقف من الحرية، والوضع الذي يستشعره الإنسان إزاء الكون والمجتمع والأحداث.

■ **قيمة الحق**: إذا رجعنا دائماً إلى معين الأدب نستشف منه القيم التي تحكم رؤية الإنسان الغربي، فإننا نجد قيمة الحق، والالتزام بالحق، عرضة للفرار منها والتنكر لها، لأنها في اعتبار الإنسان الغربي تتنافى مع اللذة الزائفة التي يجنيها من الطريق السهل، طريق السكوت على الحق، كما في مسرحية "بعد السقوط" للكاتب المسرحي "ميللر" حيث يصور الحق بأنه يسبب العذاب.

أين هذا الموقف المائع الغريب من موقف الإسلام من الحق، ذلك الموقف الذي يدفع إلى نشدان الحق والتضحية في سبيله بالغالي والنفيس، ويجعل التواصي به شرطًا من شروط النجاة من الخسران، مصداقًا لقوله تعالى في سورة العصر: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ (العصر:٣).

■ **قيمة العفاف** (**أو العفة**): هل للعفاف كقيمة تربوية، وجود في المجتمع الغربي المعاصر؟ إذا انطلقنا من تفسير علماء الأخلاق للعفة، وهو «ضبط النفس واعتدال ميلها إلى اللذة، سواء في ذلك

اللذائذ الجسمية من المأكل وغيره، واللذائذ النفسية من الانفعالات والعواطف »[1]، إذا انطلقنا من ذلك التعريف، ونظرنا في ضوئه إلى واقع المجتمع المعاصر، فإننا نراه بعيداً كل البعد عن معاني العفة، متهالكًا على الملذات، يعب منها بنهم لا ينتهي وظمأ لا يرتوي، وليس ذلك بالغريب، إذ أننا لا يمكن أن ننتظر سلوك العفة أو خلق الاعتدال من أناس يعتقدون أن مساحة الحياة لا تتجاوز العالم الدنيوي الأرضي إلى عالم آخر من صفته الأبدية والخلود. إننا إذا لجأنا إلى الإنتاج المسرحي المعاصر، زودنا بصورة معبرة عن ذلك الارتماء الهستيري في أحضان الماديات. ففي مسرحية "ست شخصيات تبحث عن مؤلف لـ" بيرندللو"، نجد أن الانسياق وراء تيارات الرغبات يعصف بكل شيء، حتى العرض وهو من أقدس المقدسات، يداس عليه في سبيل المزيد من الثراء، وأن "الماكيافيللية" تكشر عن أنيابها البشعة عبر تلك المشاهد.. ويجد هذا الانسياق أبلغ تعبير له في مسرحية "كل شيء في الحديقة" للكاتب الإنجليزي "جايلز كوبر Giles Cooper".

إنه عالم تنتهك فيه الأعراض وتذبح القيم، وتقدم قربانًا للعجل الذهبي. فلا مكان إذن للعفة والغيرة، في خضم الغرائز الهائجة والأهواء الطائشة والمطالب التي لا تقف عند حد.

---

(١) باقر شريف القرشي، مرجع سابق، ص٢٢٢.

■ **قيمة الصدق**: إذا لم يكن هناك عفاف، فمن أين لقيمة الصدق أن تتسرب إلى ذلك المجتمع البائس؟ إن المجتمع المعاصر قد أصبح محرومًا من جهاز المناعة الذي يقيه من الجراثيم الفتاكة التي تنفذ إلى كيانه، ومن هنا فإن ما لا يحصى من تلك الجراثيم السامة تنفذ إلى رئتيه وعقله وقلبه، تعبث فيها كما تشاء، دون أن يصدر منه أدنى رد فعل.. «لقد أصبح النفاق والغش والكذب والتذبذب، وكلها صفات حذرت منها الأديان السماوية، إلى جانب تنافيها مع المثل الإنسانية التقدمية والمعنوية والفلسفية والخلقية، أصبحت هذه الصفات ضربًا من التكتيك المشروع في الأيديولوجيات المعاصرة للدول الكبرى، وليس فقط على مستوى الفرد، وإنما على مستوى الجماعات، بل والمجتمع بأكمله»(١).

■ **التعاون أم الأنانية**: أي من هذين القيمتين يسود المجتمع المعاصر؟ لقد درج كثير من الناس على التمييز – في الإجابة على هذا السؤال– بين نظامين: الرأسمالي والنظام الماركسي الشيوعي. فيصورون النظام الرأسمالي قائمًا على الفردية والأنانية، ويصورون النظام الشيوعي قائماً على الجماعية ونكران الذات. فهل صحيح هذا الفرق المزعوم؟

الواقع أن كلا المذهبين أو النظامين ينتمي إلى حضارة واحدة،

---

(١) د. رشدي فكار، الشباب وحرية الاختيار، ص١٩.

مشتركة الجذور والقيم، فالنظرة المادية الصرفة هي التي تحكم موقفهما من الوجود.... وكلاهما يقوم على نظرة فردية، ويستند إلى الدوافع الذاتية والأنانية، فالرأسمالية تكرس في الأفراد المحظوظين أنانيتهم، وتفسح لهم المجال لاستغلال الآخرين، والاستهتار بحقوقهم، بينما الماركسية تتجه إلى غير هؤلاء المحظوظين ممن لم يحظوا بتلك الفرص، فتثير فيهم الدوافع الذاتية والأنانية، وتؤكد على ضرورة إشباعها. وتسعى الماركسية إلى تنميتها بوصفها القوة التي يستخدمها التاريخ في تطوير نفسه(١).

■ **مفهوم أو قيمة العلم**: من المعلوم أن العلم قد أصبح من مميزات الحضارة الغربية المعاصرة، ولكن لنكون دقيقين في كلامنا، ينبغي أن نبين ما طبيعة هذا العلم الذي يسود الحضارة الغربية ويعتبر عنوانًا عليها؟ وأبادر فأقول: بأن ذلك العلم لم يبرح حدود عالم الطبيعة التي لم يرتد منها إلا مساحة ضيقة إذا قيست بالآفاق المجهولة. وليست العقدة كامنة هنا، فهذا أمر طبيعي، ولكن العقدة كامنة في الأساس المادي الذي وضع عليه بناء العلم في الغرب، وفي الرؤية المادية التي ينظر من خلالها إلى نتائجه وثمراته، تلك الرؤية التي أدت إلى نتيجة حتمية هي الاعتداد بالعلم في صفته المادية، والاغترار بقدراته على اختراق المجهول وتحطيم الحواجز، وتحويل الإنسان إلى رخاء.

---

(١) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، ص٢١٨ بتصرف.

ولكن الغربيين يفتقدون إلى الشمول في نظرتهم إلى العلم، فيعتبرون أن هذا الحيز المكاني الضيق الذي يتحركون فيه هو كل شيء. وخطورة هذا المفهوم المحدود للعلم- القائم على الفلسفة المادية- تكمن في التطاول على عالم ليس من طبيعة مادية، هو عالم النفس بدروبه ومجاهله ومنحنياته، الأمر الذي تمخضت عنه مجموعة من النظريات تزعم لنفسها فهم النفس الإنسانية. وهذا المفهوم المحدود للعلم لدى الغربيين هو ما يعبر عنه قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (الروم: ٧).

فإذا كان العلم عند المسلمين قد ارتبط بالدين ونشأ في أحضان توجيهاته، التي حركت عقول العرب وغيرهم بعد سكون، وسار في ظل القيم السماوية، فإن العلم في الغرب قد انفصم عن الدين بسبب تلك الملابسات النكدة التي وقعت بين العلماء والكنيسة الضالة.. وحتى في حالة العلماء المؤمنين بالمسيحية، فإن «مما يدعو إلى الغرابة والضحك معًا اتفاق بعض العلماء على أن يكونوا علماء طوال الأسبوع، وأن يكونوا مؤمنين بمعنى الكلمة في أيام الآحاد.. وأن يكونوا علميين حينما يكتبون في العلوم الطبيعية... على أن يكونوا بعد ذلك مؤمنين في بيوتهم وفي تصرفاتهم»[(١)].

---

(١) محمود أبو الفيض المنوفي، الإسلام والحضارة العالمية، ص٢٣٦.

وبعد أن جردت الحضارة الغربية العلم من إطاره الديني الإسلامي الأصيل، لم يكن غريباً أن يتجه بنتائجه هذا التوجه التخريبي، الذي أرعب الإنسانية جمعاء وروع أمنها . . . فالعلم بدون دين فاقد للبصيرة، وهو بمثابة وحش ضار يهلك الحرث والنسل، فشتان بين علم هذه حاله، وبين علم شامل للدنيا والدين، نافع للإنسان، منير له سبيل السعادة في الدنيا والآخرة.

• مقارنة ودراسة:

بعد التطرق للقيم التربوية في الإسلام وفي المجتمع المعاصر، يجدر بي أن ألقي نظرة شاملة أقارن فيها بين نسقي القيم التربوية في الإسلام والمجتمع المعاصر، وسوف تتمحور هذه المقارنة حول نفس النقاط التي تناولها التحليل، بصورة إجمالية، على أساس أن تلك النقاط أو المحاور حلقات مترابطة يأخذ بعضها برقاب بعض، فالنسق القيمي لا مناص له من رؤية تصورية أو أساس عقدي منه ينبثق، ومنه يستمد إمكانية الحركة وخط السير، ولا مناص له من منهج نحلل من خلاله الظواهر على اختلافها، ولا بد له بعد ذلك من قيم جزئية تستقي مقوماتها منه . . .

الجانب العقدي: هناك مجموعة من التساؤلات حول القضايا

الوجـودية الكـبرى التي تشـرئـب الفطرة لمعـرفـة الإجـابـة عنهـا، هذه القـضـايا ترتبط بالأصـل والمصيـر. ورغـم أنهـا تسـتـأثر باهتـمـام الناس بشكل مـتـفـاوت (المفكـرون والعـامـة)، فـإن الإجـابة عـليـهـا -عـلى كل حال- تظل قـضـية مـصيرية بالنسبة للمجتمع، اذ علـيـها يتـوقف معنى الحياة والوجود الإنسانيين.

«وحين تـضل الإجـابـة، يضـل السلوك، وتقع الحـيـرة، ويـحـدث التمزق، إن الحيرة الكبرى التي تعيشها (الجاهلية) الحاضرة هي الإجابة على هـذه الأسـئلة: من أيـن جـئنا؟ لماذا جـئنا؟ إلى أيـن نـذهـب؟ ولماذا نعيش؟ ولأنهم لا يجدون الإجابة على هذه التسـاؤلات التي تلح على فطرتـهـم، فـإنـهـم يمرقـون ويعـربـدون في الأرض، ويقـولـون: نبـحـث عن وجودنا، نريد أن نعـرف لماذا نعيش؟ نريد أن نحس طعـماً لحياتنا، نريد أن نرى معنى لوجودنا في الأرض»[1].

لقـد أجاب الإسلام إجابة شافـية للنفس مقنعـة للعقل، على هذه الأسـئلة الجوهرية، فحدد الأصل الذي جاء منه الإنسـان بكل الوضـوح والدقة، وحدد الوظيفة التي خلق من أجلها الإنسان، وهي القيام بمهمة الخلافة على الأرض، وحـدد المنهـاج المتبع في هذه المهـمـة والكفـيل

(١) زيدان عبد الباقي، علم الاجتماع الديني، ص٢٧٣.

بإنجازها على الوجه الأكمل، وحدد المصير الذي ينتظر الإنسان الخليفة بعد رحيله من هذه الدنيا الفانية إلى الدار الباقية. أما الحضارة المادية المعاصرة، فقد ظلت تتأرجح بين المذاهب والتصورات البشرية القاصرة، ولم تثبت على حال، ولم ترح عقل الإنسان الذي ينتمي إليها، لأنها لم تفلح في الجواب على أي سؤال من الأسئلة السابقة، ومن أين لها ذلك وهو يتجاوز طاقتها، ولا هو من شأنها؟!

فالعقل الإنساني ليس بقادر على اختراق حجب الغيب والكشف عما يستجد في حياة الإنسان من أوضاع وأحوال، وهو قبل ذلك جاهل بحقيقة النفس الإنسانية وأوتارها وآلياتها، فهو (أي العقل) يظل حبيس ما يكتنفه من أوضاع اجتماعية واقتصادية وغيرها.

إن الاختلاف بين الإسلام والفلسفة المادية في المنطلق العقائدي، كان له أثره الحتمي على خصائص القيم المنبثقة عن كل منهما.. فبينما القيم في الإسلام يطبعها الثبات والعمق والوحدة، فإن القيم المادية لا تنعم بأية خاصية من تلك الخصائص، ولذلك فإننا نجد المجتمعات الغربية المعاصرة «تكيل بمكيالين، وتتعامل بوجهين، وتطبق الدساتير العادلة داخل بلادها دون أن تستخدمها في مستعمراتها»(١).

---

(١) توفيق محمد سبع، قيم حضارية في القرآن الكريم، ص٢٢٥-٢٢٦.

وإذا كان الإسلام يتسم في نظرته إلى الإنسان بالواقعية، التي يأخذ بموجبها كل أبعاد الإنسان الحيوية بعين الاعتبار والتقدير، فإن المذاهب المادية التي حفل بها المجتمع المعاصر، كثيراً ما سقطت في الطوباوية والخيال المجنح بعيداً عن الإنسان الواقعي، وما ذلك إلا للجهل المطبق بالإنسان ومكوناته.

إن نظرة الإسلام إلى الإنسان نظرة تكريمية، تعتبره خليفة في الأرض، مفضلاً على كل ما فيها من كائنات.. أما النظرة المادية فهي تهدر كرامة الإنسان وتمرغها في الأوحال، فهو عندها لايعدو أن يكون فصيلة من فصائل الحيوان.

وإذا كانت المذاهب المادية المعاصرة تنحو منحى متطرفًا في تعاملها مع الكيان البشري، بحيث إنها تضرب على أوتار المادية الغريزية وتكبت فيه أشواقه الروحية، فإن الإسلام يحقق توازنًا رائعًا بين مطالب المادة والروح، بحيث لا نجد أدنىٰ تناقض بين القيم ذات الوجه المادي، والقيم ذات الوجه الروحي.

وإذا كانت النزعة المادية لدى الإنسان الغربي، والقيم الصادرة عنها، تصور علاقته مع الطبيعة في صورة الصراع العنيف الذي يسعى الإنسان من خلاله إلى السيطرة على الطبيعة وإخضاعها لرغباته، فإن

قيم الإسلام تبرز العلاقة القائمة بين الإنسان والطبيعة في صورة تجانس وانسجام بينهما، وفقًا للسنن التي بثها الله تعالى في الكون.. والقرآن الكريم يعبر عن هذه العلاقة بالتسخير: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية:١٣).

■ **ارتباط الأخلاق بالدين في الإسلام وانفصالها عنه في الغرب:**

بقيت أمامنا في مجال المقارنة بين الإسلام والغرب، قضية هامة تتعلق بصلة الأخلاق بالدين.. وليس المطلوب هنا حديثًا نظريًا عن نشأة الأخلاق والدين، وإنما عن علاقة الدين بالأخلاق من حيث تحديد القيم الواجب التحلي والاتصاف بها، أولاً، ومن حيث تأثير هذه العلاقة في إعطاء القيم والفضائل أكلها في مجالات الحياة والعلاقات الإنسانية.

لقد سبق القول في مكان آخر من هذا البحث: إن الإسلام يربط الأخلاق بالشرع، فالشرع هو الذي يحسّن ويقبّح ... وليست الأخلاق متروكة للإنسان ينظر فيها بعقله، لأنه فضلاً عن كونه بطبيعة آفاقه المحدودة، عاجز عن العثور على نسق شمولي يستجيب لحاجيات الإنسان وتطلعاته الحضارية، فضلاً عن ذلك، فإن نسقه ذاك حتى وإن كان فيه قدر من الصواب، فإنه يظل جسدًا راكدًا لا حياة فيه...

فالعقيدة هي التي تبعث الحياة في القيم، إذ هي التي تحفز الفرد إلى الفعل أو الترك. إذا كانت الأخلاق على هذه الصورة في الإسلام، فهي في الغرب أخلاق نظرية باردة تفتقد إلى المحرك الذي يصلها بقلب الإنسان ووجدانه.

فإذا كان الموت والفناء، وليست الحياة الآخرة هي مآل الفرد، كما تعلمنا الحضارة الغربية، وكما يؤكد ماركس ولينين، فسينهض بالضرورة سؤال كهذا: «لماذ نهتم بالأهداف الاجتماعية، ولماذا نكد ونكدح في سبيل إسعاد غيرنا، ونضحي باللذة وبالسرور الذي يتيحه لنا وجودنا الوقتي القصيرالذي ينتهي إلى فناء محض، من أجل أناسي آخرين محكوم عليهم بالفناء والبلى؟»(١).

إن الإسلام يربط ربطًا محكمًا بين العقيدة والعبادة والأخلاق، فالعقيدة الصحيحة لا بد أن تعبر عن نفسها في العبادة الخاشعة الصادقة، وهذه لا بد أن تؤدي إلى ممارسة الفضائل الأخلاقية، فهي (أي العبادة) «ما لم تثمر الأخلاق الفاضلة من أمانة وصدق وإخلاص وحب وإيثار وبر، فلا قيمة لها»(٢).

غير أننا حتى لا نحيد عن الموضوعية والعدل في الحديث عن

---

(١) زيدان عبد الباقي، علم الاجتماع الديني، ص٢٧٣.

(٢) توفيق محمد سبع، مرجع سابق، ص٢٧٣-٢٧٤.

حالة القيم في الغرب المعاصر، وفي إصدار الحكم عليه، لا يذهب بنا الشطط بعيداً فننفي عنه كل وضع إيجابي، نعم هناك بعض الإيجابيات، وبعض العناصر ذات الوجه الإنساني. ولكن الحقيقة المرة التي تكتسي الطابع المأساوي، هي أن تلك العناصر الإيجابية هي التي بفضلها لا يزال المجتمع الغربي، بحضارته المسرفة في المادية، قائم البنيان.... ولكن بفعل طغيان عناصر الفساد، فإن ذلك البنيان، كأنه يقف على جرف هار يهدده بالسقوط.. وسيسقط بعد حين.

الفصل الرابع

أثر القيم التربوية في بناء الشخصية والمجتمع

أثر القيم التربوية الإسلامية في بناء الشخصية والمجتمع

لا شك أن التصور الذي يحمله الإنسان، ونظام القيم الذي يرتبط به، يترك أثره في سلوكه سلبًا أو إيجابًا، وينعكس ذلك الأثر -بطبيعة الحال- على سير المجتمع وبناء الحضارة برمته.. فما هي آثار القيم الإسلامية في بناء الشخصية وبناء المجتمع؟ سأسلك في الإجابة على السؤال الطريقة التالية:

أ- بيان آثار القيم التربوية الإسلامية في الشخصية الإنسانية.

ب- بيان ذلك الأثر في بناء المجتمع.

(أ) آثار القيم التربوية الإسلامية في الشخصية الإنسانية:

تعريف الشخصية: عرف بعضهم الشخصية: «بأنها وحدة متكاملة الصفات والمميزات، الجسمية والعقلية والاجتماعية والمزاجية التي تبدو في التعامل الاجتماعي للفرد، والتي تميزه عن غيره من الأفراد تمييزًا واضحًا، فهي تشمل دوافع الفرد وعواطفه وميوله واهتماماته وسماته الخلقية وآراءه ومعتقداته، كما تشمل عاداته الاجتماعية وذكاءه ومواهبه الخاصة ومعلوماته وما يتخذه من أهداف

ومثل وقيم اجتماعية»(١). وقد عرفت مجلة علم النفس (المجلد الأول، العدد الأول) الشخصية Personnality، بأنها: «نظام متكامل من مُجموعة من الخصائص الجسمية والوجدانية النزوعية والإدراكية التي تعين هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد تمييزًا بينًا»(٢).

بتأملنا هذين التعريفين يتبين لنا أنهما يرتكزان على البعد الذاتي الفردي الذي يجعل كل فرد من الأفراد في إطار مجتمع معين، يتميز عن غيره من الأفراد في مجموعة من السمات والخصائص المتصلة بمختلف جوانب الشخصية.. والذي أريد أن أبينه هنا في حديثي عن أثر القيم التربوية في بناء الشخصية، هو تلك الخصائص العامة التي يصنعها الإسلام بطبيعة الفلسفة التي يقدمها للإنسان والقيم والتي يدخلها إلى بنائه النفسي، بحيث كل فرد من أفراد المسلمين مهما تكن خصائصه، الوراثية الجسمية، البيولوجية والفيزيولوجية، فإنه يأخذ حظه من الآثار التي تولدها التربية الإسلامية في شخصيته، والتي يصبح بفضلها كائنًا يجمعه قاسم مشترك مع غيره من الأفراد داخل نفس المجتمع.

إن أول شيء تثمره القيم التربوية الإسلامية في البناء الشخصي

---

(١) أحمد عزت راجع، الأمراض النفسية والعقلية، ١٩٦٥م، ص٥٤، نقلاً عن علي محمد الحسين الأديب، منهج التربية عند الإمام علي، ص٩٩.

(٢) المرجع السابق، ص٩٩.

للإنسان المسلم هو تقوية صلته بالله عز وجل، إلى الدرجة التي تجعله يراقبه في السر والعلن، في كل حركاته وسكناته، فهو لا يقدم على شيء إلا وهو يراعي حرمة الله ويرجو له وقاراً.. ومعنى ذلك أن المسلم في علاقته بربه، يستشعر الخشية والخوف منه، في نفس الوقت الذي يتوجه إليه بالرجاء.. وذلك الخوف وهذا الرجاء يملآن قلبه بشعور عارم من التحرر من جميع المخاوف، لأنه يشعر بقوة أن الله وحده هو مالك أمره ومقرر مصيره، وإليه يرجع الأمر كله، هو الذي يملك تبارك اسمه أن يضره وأن ينفعه، أما غيره فأسباب عرضية ليس لها من الأمر شيء. وهكذا فإن المسلم الذي يتشبع بقيم الإسلام، يتحرر من الشعور بالخوف على الحياة، أو الخوف على الرزق، أو الخوف على المكانة والمركز، فالحياة بيد الله، ليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحياة ساعة أو بعض ساعة: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة: ٥١)»[١]

وهنا، نؤكد على أن هذه الثمار الطيبة للقيمة الإيمانية، رد قاطع على من يخوضون في الأمور بغير علم ولا كتاب منير، فيدعون أن أسلوب الدين الإسلامي في زرع الخوف من الله ومن الحساب في الآخرة يتعارض مع بناء الشخصية الحرة النامية المستقلة. فهؤلاء

(١) د. بدوي عبد اللطيف عوض، الحريات والحقوق في الإسلام، مقال ضمن كتاب مشكلات المجتمع الإسلامي المعاصر، ص١٥٨.

الأشخاص ينكرون ضرورة توفر عنصر الخوف في التربية، لارتباط ذلك بطبيعة الإنسان. «وإذا كان لا بد من الخوف، فليكن ممن بيده ملكوت كل شيء، ولنسد أبواب الخوف بعد ذلك»[1].

«وليس هذا ما يقرره المؤمنون بالدين فحسب، بل هذا ما يعترف به المنصفون من المتدينين والمنكرين على السواء. فمن الملحدين من يرى الدين خرافة، ولكن الخرافة لا تستقيم بدونه (...) ويقول الأديب الفرنسي الشهير "فولتير" ساخرًا: لم تشككون في الله، ولولاه لخانتني زوجتي وسرقني خادمي! ويقول ثالث: إني لا أعتقد في وجود جهنم، ولكن أعتقد أن الفكرة عنها قد باعدت بين كثير من الناس، وبين ارتكاب الشر»[2].

إن من الآثار الواضحة لصلة الإنسان بربه، ذلك التركيز لفكر الإنسان وجهوده وطاقاته حول محور واحد هو الولاء لله ولرسوله وملة الإسلام، فهذا التركيز هو الدرع الواقي من التشتت والانشطار الذي يضرب الذات بعنف في غياب الإيمان بالله. وتزداد المسألة وضوحًا إذا أخذنا بعين الاعتبار خصائص مرحلة الشباب، التي يفيض فيها الأفراد حيوية وعنفوانًا، مما يولد لديهم ميلاً جارفًا إلى الاندفاع والانفعال والمجازفة، ومن هنا فهؤلاء الشباب في حاجة إلى كثير من التروي

(١) د. يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، ٢٤٩.
(٢) المرجع السابق، ص٢٤٨.

والتحلي بالصبر والاتزان في اتخاذ المواقف[1].

وإذا كانت القيم التربوية الإسلامية وعلى رأسها القيمة الإيمانية، تترك أثرها في النفس والجسم، طمأنينة وسكينة، فإنها في ترابط عضوي مع تلك الآثار، تخلف أثرها الواضح في عقل الإنسان المسلم بفضل ذلك النسيج المحكم من الحقائق والتشريعات وأنماط السلوك التي يتصل بها كيان المسلم. يقول د. عماد الدين خليل مشيراً إلى ذلك التحول النوعي الذي طرأ على عقل المسلم لدى اتصاله بالقرآن: إن «نسيج القرآن الكريم نفسه، ومعطياته المعجزة، من بدئها حتى منتهاها، في مجال العقيدة والتشريع والسلوك والحقائق العلمية، تمثل نسقًا من المعطيات المعرفية كانت كفيلة، بمجرد التعامل المخلص الذكي المتبصر معها، أن تهز عقل الإنسان وأن تفجر ينابيعه وطاقاته، وأن تخلق في تركيبه خاصية التشوق المعرفي لكل ما يحيط به من مظاهر ووقائع وأشياء»[2].

وفي صدد تحليل العلاقة بين العقائد والأمزجة العقلية للناس، يصنف د. محمد سلامة العقائد إلى عقائد دينية وغير دينية، كل منها يؤدي إلى تشكيل نمط معين من الأمزجة، ثم يخص العقيدة الإسلامية بالتحليل قائلاً: «فالعقيدة الدينية الإسلامية مثلاً، يصاحبها المزاج المتفائل، الذي يعترف للفرد بكل حقوقه في الحياة، ويطالبه بالسعي لتأكيد الذات. ولهذا فهو مزاج يدفع للنشاط والعمل، كما

(١) د. رشدي فكار، الشباب وحرية الاختيار، ص٢٩.
(٢) د. عماد الدين خليل، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص٤٦.

يطالب الشخص بالسعي نحو المعرفة لإدراك الكون من حوله، وتحديد دوره ووظيفته في هذا الكون. وهكذا فالوعي في العقيدة الدينية وعي شمولي، يقوم على إدراك الذات والوعي بالكون كله. وهو في نفس الوقت وعي تقدمي يطالب بالتغيير والإصلاح عن طريق الفهم والبحث والابتكار والاختراع، ولذا فالإنسان في العقيدة الإسلامية طاقة حيوية مؤثرة، وليس كمًا سلبيًا»[١].

وهذه الخصائص الشخصية الممتازة، هي وحدها التي تفسر سر ذلك الانطلاق الهائل الذي حققه الإنسان المسلم في كل ميدان من ميادين الحياة العلمية والإنتاجية، وتفسر لنا مدى الالتزام بمبدأ الإتقان في العمل، والحرص على اجتناب قبائح النفس ورذائل السلوك.

إن أثر القيم الإسلامية في الشخصية لا يخص، كما سبقت الإشارة إليه، جانبًا من جوانب النفس دون الأخرى، بل إنه ليهيمن عليها حتى لا يدع دقيقة من دقائقها، إن تلك القيم الشاملة لا تجعل المسلم صدقًا في معاملاته وممارساته الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية، متعاونًا فيها على البر والتقوى، عفيفًا معتدلاً في تعامله معها وحسب، ولكنها لتنفذ إلى أعماق نفسه فتغرس فيها رهافة في الحس وشفافية في الذوق والضمير.. « قال البخاري في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ

(١) نقلاً عن د. عبد الغني عبود، الفكر التربوي عند الغزالي، كما يبدو من رسالة أيها الوالد، ص١٧٧.

﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ (الحجرات: ٢): كاد الخيران أن يهلكا: أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم ركب تميم في السنة التاسعة للهجرة. وقد أراد رسول الله ﷺ أن يؤمر عليهم رجلاً منهم، فأشار أحدهما بتأمير الأقرع بن حابس، وأشار الآخر بتأمير القعقاع بن معبد، وفي بعض الروايات أن أبا بكر قال لعمر: ما أردت إلا خلافي! قال عمر: ما أردت خلافك! وارتفعت أصواتهما، فنزلت الآيات.. فلما أخذا ذلك الدرس وعياه، ولم يعودا يتحدثان في مجلس رسول الله ﷺ إلا السرار أو أخا السرار»[١]. «وقد روي أن أبا بكر وعمر بعد أن انتهيا وأعلنا تأدبهما في القول مع رسول الله ﷺ نزل قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ ...﴾ (الحجرات: ٣). فهكذا تتجاوب السماء معهم رقة كما تتجاوب معهم زجراً لتصقلهم صقلاً كريماً، وتطهرهم من كل ما يمس الذوق الرفيع أو يصدم الشعور النبيل»[٢].

وهكذا يتضح لنا الأثر البناء الذي تتركه القيم التربوية الإسلامية في الشخصية الإسلامية الإنسانية، بحيث تصوغها صياغة ربانية تمس كل موطن من مواطنها، وتهز كل وتر من أوتارها، لينخرط الإنسان بكل كيانه وطاقاته في رفع البناء الذي أمره الله برفعه، على هدى من الله.

---

(١) توفيق محمد سبع، قيم حضارية في القرآن الكريم، ص٢٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨٢.

(ب) أثر القيم التربوية في بناء المجتمع والحضارة:

لقد رأينا في المحور السابق كيف أن القيم التربوية الإسلامية قد صنعت من الأفراد الذين تشبعوا بها كائنات فذة، تحمل من عناصر القوة والحيوية ما استطاعوا بفضله أن يواجهوا تبعات الحياة ومشاق السير في دروبها الوعرة... فإذا كان المجتمع ليس في حقيقته سوى مجموعة الأفراد الذين يتألف منهم، فمعنى ذلك أننا بإزاء مجتمع متماسك البنيان، راسخ الأركان، سائر إلى الأمام، مضطرد النمو، لأن الإسلام يعتمد في بنائه للمجتمع على أفراد أقوياء النفوس ممتلئين بالعزم والقدرة على الثبات. فكلما كان الطابع الغالب على المجتمع طابع هؤلاء الأفراد الأفذاذ، كلما كانت شبكته الاجتماعية شبكة متينة الإحكام.

ومن هنا نخلص إلى الحقيقة التي يقررها القرآن في قضية التغيير الحضاري، وهي أن الإنسان هو الأساس في ذلك التغيير، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ (الرعد: ١١).. فسنة البناء والتغيير تمر من خلال جهد البشر وتفاعلاتهم. وحديث رسول الله ﷺ «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(١). هذا الحديث يعرض لنا

---

(١) رواه البخاري.

صورة المجتمع الإسلامي في غاية التضامن والترابط والتساند، حتى لكأنهم كالجسد الواحد الذي يتأثر مجموعه بتأثر أي عضو فيه.

وحتى لا يصيب التخلخل ذلك البنيان، فإن هناك جهازًا دقيقًا يحرسه داخل كل فرد مسلم، إنه جهاز المحاسبة للنفس.. هناك النفس اللوامة التي أقسم بها العزيز الجبار، لعلوها وعظم شأنها، ولضرورتها في استمرار الحياة سليمة، واستمرار مجراها هادئًا صافيًا من الأكدار.. فالكدورات التي ترين على المجتمع وتهز بناءه، إنما مصدرها النفوس التي تأصلت فيها أدواء الأنانية والأثرة، والكذب والحسد والخيانة.. فإذا ما خلصت النفوس من تلك العلل والأمراض، فإن أفراد المجتمع يكونون متعاونين على البر والتقوى، أي على كل ما تصلح به الحياة وتسعد به النفوس، من جلب للمصالح والمنافع والخيرات التي تخدم المجتمع في حركته نحو تحقيق أهدافه.. فسياسة الأمة وتسيير دواليبها وأجهزتها في ميادين التعليم والقضاء والزراعة والتجارة والصناعة، لا مفر لها من الاعتماد على رصيد القيم التربوية.

إن المجتمع المسلم لا يتألف من أفراد متقوقعين على أنفسهم، مستغرقين في ذواتهم، لأنهم يدركون أن ذلك يتنافى مع الغاية من الوجود التي لا تتحقق بغير التعاون واستشعار آصرة الأخوة. لقد حدد الإسلام العلاقات بين أفراد المجتمع، وأرسى قواعدها بإحكام، بحيث تؤدي إلى أمن المجتمع واستقراره وطمأنينته.

ويمكننا أن نقول: إن كل الآداب والأخلاق والتشريعات التي جاءت في القرآن الكريم، ذات صبغة اجتماعية واضحة، وإن الهدف منها تنظيم الحياة في المجتمع الإسلامي على أساس مبادئ العدل والمساواة والحق التي جاء بها الإسلام(١). إن مجتمعًا تسري في أوصاله مثل تلك القيم، لا يمكن أن يتسرب إليه الوهن والاختلال، لأن أفراده لا يكتفون بالوقوف عند حدودهم، فذلك حد أدنى -بل إنهم- ليتجاوزون ذلك إلى تقديم العون إلى بعضهم بعضًا، وتفريج كرب بعضهم بعضًا، عملاً بما دعا إليه رسول الله ﷺ: « **المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته. ومَنْ فرّج عن مؤمنٍ كربةً مِنْ كربِ الدنيا، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة** »(٢).

والحقيقة التي ينبغي أن تظل حاضرة في الأذهان، هي أن المنهج التربوي الإسلامي كيان مترابط الأجزاء، تتشابك فيه العقيدة مع العبادات، وهذه مع الأخلاق، والكل يعطينا تلك الثمرة الطيبة التي هي الإنسان المسلم، وبالنتيجة المجتمع الإسلامي الفاضل. وعلى سبيل المثال، فالصلاة هي إحدى الوسائل التي يجسد بها المسلم قيمة العبودية لله عز وجل، يرغب الإسلام في إقامتها مع الجماعة ويرفع درجاتها إلى سبع وعشرين درجة، تأكيدًا لروابط المسلمين وتعزيزًا

(١) أمال حمزة المرزوقي، النظرية التربوية ومفهوم الفكر التربوي الغربي، ص١١١.

(٢) رواه البخاري وأبو داود.

للتعارف فيما بينهم.. والزكاة عبادة اجتماعية، لا يخفى دورها في دعم بنيان المجتمع الاجتماعي والاقتصادي، من خلال ما تزود به بيت مال المسلمين، ومن خلال معاني المحبة والتكافل التي تشيعها بين الأغنياء والفقراء، وقس على ذلك بقية الفرائض.

وإذا كان نظام القيم الإسلامي له ذلك الأثر العظيم في بناء الشخصية والمجتمع، فمن الطبيعي أن يكون له أثره في البناء الحضاري الشامل، وأساس ذلك النظام القيمي الإسلامي يستأصل نزعات الشر من النفوس، المتمثلة في الظلم والجبروت والتسلط على رقاب الناس والسعي إلى استعبادهم وإذلالهم لإشباع النزوات الفردية المريضة.

والخلاصة من كل سبق، أن المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية، لا يزالان قائمين ما دامت قيم الإسلام سائدة.. وكلما ضعفت وتلاشت، كلما كان ذلك إيذانًا بالانحلال وانفكاك عرى المجتمع والحضارة... إن تمثل النظام القيمي الإسلامي يمكن أن نجمله في كلمة واحدة تجمل معانيه وتجسد غايته، وهي كلمة العبودية لله عز وجل، وإن لحظات الصعود «في التاريخ الإسلامي الطويل، كانت تبدأ مع ساعات الإحساس الكامل بهذه العبودية لله، وتحولها إلى حركة كاملة، تحكم الفرد المسلم والمجتمع المسلم، وإن حالات (الهبوط) فيه كانت تتزامن مع فقد الإحساس، ولو إلى حين»(١).

---

(١) د. عبد الغني عبود، التربية الإسلامية في ق ١٥هـ، ص١٨٥.

أثر القيم المادية في بناء الشخصية والمجتمع والحضارة

(أ) أثرها في بناء الشخصية الإنسانية:

إذا كان نظام القيم التربوية في الإسلام يجمع شتات الإنسان ويركز طاقاته وإمكانياته حول مركز واحد هو الولاء لله عز وجل وابتغاء وجهه الكريم، فإن نظام القيم التربوية المادية يعصف بقوى الإنسان ويذهب بها طرائق قدداً، ويلحق بها تشوهات مريعة يتحول معها الإنسان إلى كائن مستلب، غريب عن نفسه وغريب عن الكون الذي يحيط به... فيصيبه الدوار والغثيان، ويشعر بالعبثية وانعدام معنى الحياة. إن الشخصية الإنسانية في ظل القيم المادية، وقد فقدت صلتها بخالق الوجود، تنجرف مع تيار التطور والتغير دون ضوابط ولا قيود، «وذلك لأن أداة الاختيار والتمييز في هذه الشخصية من عقل وضمير وإرادة، فلت زمامها وفقدت السيطرة على نفسها، شأنها شأن الساعة التي أصابها خلل جعل عقاربها تتحرك بسرعة في كل اتجاه، فلم تعد صالحة لمعرفة الزمن، وهكذا فقدت هذه الشخصية القدرة على الاختيار السوي، فاندمجت تأخذ من هنا وهناك أي فكرة أو أي شيء دون قاعدة أو مبدأ»[1].

وعندما يجد الإنسان نفسه وحيداً، مقفرا قلبه من نور السماء،

---

(١) د. أحمد الفنيش، أصول التربية، ص٧٩.

فإنه يشعر بالخواء القاتل الذي يسحقه بغير رحمة، وعندها لابد أن يفعل أي شيء يوهمه بالإشباع والاطمئنان، ولن يجد أمامه غير الارتماء في أحضان الملذات يكرع منها كالكلب المسعور.

وقد تأثرت نظرية التربية بذلك، فأصبحت ترى غايتها في إحداث التجانس في الرغبات بين أفراد المجتمع الواحد. أما إذا تجانست فلا سؤال ولا استفهام بعد ذلك في خيرها أو شرها. وعلى المستوى الجماعي، وجدت العصبية القومية حجتها لتبرير استكبارها على شعوب الدنيا واستعمارها للضعيف منها، فالإرادة القومية تعلو ولا يعلىٰ عليها، وكل ما تمارسه حق لكونه إرادة قومية(١).

والواقع أن بذل الجهد من طرف المنظرين الغربيين لإحداث التجانس بين الرغبات المتضاربة، هو ضرب من العبث وطلب المحال، فالرغبات الفردية التي لا يشدها أصل غير اللهاث وراء الإشباع المادي، لا يمكن أن تتجانس، لأن ذلك يتعارض مع الإشباع المادي نفسه. إن الإنسان المادي يمضي في تيار الشهوات إلى أن يسقط صريع المرض النفسي القاتل، الذي لم يزده الترف ووفرة المتاع المادي إلا تفاقماً، لأنه كائن لا انتماء له بالمعنى الحقيقي للانتماء.

وإذا كانت الرؤية الإسلامية للحياة ونظام القيم المنبثق منها، يؤديان بطبيعتهما إلى إقامة الانسجام والتكامل بين الإنسان والكون،

---

(١) انظر إسماعيل الفاروقي، (م.س)، المسلم المعاصر، عدد٣٩، ص١٥.

بحيث يسيران بإيقاع متوازن، جنبًا إلى جنب، نحو تحقيق مراد الله في الوجود، فإن الرؤية المادية (ونظامها) القيمي يقودان حتمًا إلى ارتطام الإنسان بالكون، إذ العلاقة بينهما تصور في إطار المنظور المادي، في صورة الصراع الرهيب.. وكأن كلا منهما قد وضع في استقلال عن الآخر... وأن ما يجري بينهما خلال عصور التاريخ هو عملية سطو وعداء لا علاقة توافق وإخاء. لقد كان لهذا التصور الغريب عن حقيقة وجود الإنسان في هذا الكون، أثره المدمر على موقف الإنسان من العمل وما يتمخض عنه من إنتاج، وقد تمثل ذلك الأثر في تخريب الإنسان ما تفتقت عنه عبقريته العقلية، وما أنتجته يداه، فأصبح ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ (النحل:٩٢).

لقد أصبحت فكرة الصراع هي التي تحكم حركة الإنسان المادي، الصراع مع كل شيء، مع نفسه، ومع الكون، ومع الآخرين، ولا مفر له من ذلك ما دام سجين النظرة المادية.

ولا ننس، ونحن بصدد أثر القيم التربوية المادية في الشخصية الإنسانية، أن الإنسان المادي بعد أن أرقته ليالي العذاب ورحلة المعاناة والشقاء، بدأ يتحسس الطريق التي تعيد إليه نفسه الضائعة ومعناه المستلب... ولكن لسوء حظه أنه كثيرًا ما يسقط في شراك الأدعياء والدجالين الذين يقذفون به في دوامة الشقاء من جديد، ولكن في أشكال جديدة تخلب الأنظار. وفي أحسن الأحوال فإن الغربيين قد

انتهوا إلى دين «لا يمتد ظله إلى أكثر من الأخيلة والأحاسيس النفسية المجردة، فلا هو يملك سلطانًا على ما وراء ذلك، ولا هم يريدون أن يملك أي سلطان خارج حدوده النفسية هذه، ولكنهم اعتمدوه قيمة روحية قد تساعد في تخفيف الآلام النفسية التي يتعرض لها الإنسان الأوروبي، خلال مغامراته واندماجه وسط أمواج عاتية من الإباحية واللذة المطلقة»(١).

ب- أثر القيم التربوية المادية في بناء المجتمع والحضارة:

إن ذلك التفكك الذي عاناه، ويعانيه الإنسان الغربي على مستوى نفسه التي أرهقها الشرود عن الصراط المستقيم، كان لا بد أن ينعكس على جهاز المجتمع أو التنظيم الاجتماعي بالتهلهل والتحلل، حيث إنه المجتمع لا يعدو أن يكون أشتاتًا من الناس الذين لا تجمعهم وحدة، ولا ينتظم عقدهم خيط واحد، إن كل الأمراض والنواقص النفسية من انحلال وتهالك على الملذات المحرمة والحسد، وسوداوية النفس، تنتهي بخنق المجتمع وامتصاص طاقاته، ووقف تطلعاته نحو الأفضل.

لقد ضربت النظرة المادية نفس الإنسان الغربي وتركتها صفصفًا مهجورة من قيم الخير والاستقامة، وخرّبت بذلك المجتمع وقوّضت دعائمه وجففت منابع الخير والصلاح فيه، فقد ظهر بعد قرن كامل من الصراع المرير، أن الإنسان بطبيعته عاجز تمامًا عن إيجاد القيم المجردة عن المصالح الذاتية، لأن حبه لمصلحته حجب عنه حقيقة نفسه، وحال

---

(١) د. محمد سعيد رمضان البوطي، من الفكر والقلب، ص٩٣-٩٤.

بينه وبين فهمها في شموليتها، وبالتالي بينه وبين وضع نظام القيم التي تستجيب لتلك الشمولية. وكان من نتائج الفرويدية تقويض دعائم الأسرة ونسق ضوابطها، بسبب الفوضى الجنسية التي طبعت علاقات الأفراد، ومن خلال الانحرافات التي أغرقت الناس في مستنقع الأمراض الجنسية، وألقت بهم في جحيم من القلق والأمراض النفسية لا يطاق، أما البرجماتية فقد كان من نتائجها حدوث خلل في الحياة الاجتماعية، وهو أمر مترتب لا محالة على نظرتها التي تحقق المصلحة دون التفات إلى القيم الروحية ومبادئ الحق والعدل(١).

وهكذا فإن النظرة المادية، قد فجرت في الإنسان طاقاته في إنتاج وتكديس المنتجات المادية، في نفس الوقت الذي ألقته في أتون التنافس المحموم على تلك المنتجات، فجعلت بعض الناس فريسة ونهباً لبعضهم الآخر، ينهشه بغير رحمة، ويحوله من شريك إلى أداة(٢).

وليس في هذه النتيجة تناقض مع ما قلناه سابقاً من أن القيم المادية كفيلة بامتصاص طاقات الإنسان وتوهين قواه، لأن العبرة بالمآل، فالكارثة وإن لم تحل بالشكل النهائي، فإنها ستحيق بالمجتمع الغربي ولو بعد حين، وفقاً لسنن الله في النفس والمجتمع، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ (الكهف: ٥٨).. فالبناء الاجتماعي الغربي وإن كان يبدو قائماً، محتفظاً ببعض بريقه الذي يسلب الأعين المسطحة، فهو يحتوي في

---

(١) د. محسن عبد الحميد، المذهبية الإسلامية، الصفحات ٧٢-٧٤.

(٢) محمد باقر الصدر، منابع القدرة في الدولة الإسلامية، ص ٤٠.

جوفه على جراثيم الموت والانهيار.

ونخلص من هذا الحديث عن أثر القيم التربوية المادية في المجتمع، إلى الحديث عن أثرها في البناء الحضاري.. فكما سبقت الإشارة، فإن تلك الشروخ التي أحدثتها أمراض النفس في الكيان الاجتماعي، لن يظل أثرها محصوراً في نطاق معين، بل إنها لتبتلع كل العناصر والمقومات التي تقوم عليها الحضارة. ولقد أجمع عقلاء الغرب على أن الذي سيذهب بالحضارة إلى حتفها هو العامل المادي، الذي هو أبعد ما يكون وحده كافيًا لتفسير الوجود الإنساني، وتقويم نجاح المسيرة الإنسانية أو إخفاقها.

وبعد، فإن بعض هؤلاء العقلاء قد أدركوا بنفاذ، بعد التأمل في تجربة الغرب المريرة، أنها لم تفصل على حجم الإنسان ولم تراع أشواقه وتطلعاته، إنها انطلقت منذ بدايتها انطلاقة خاطئة زجت بها في ظلمات، بعضها فوق بعض، فكانت النتيجة هي الحيرة والتمزق، والارتداد إلى أسفل سافلين، ليصبح الإنسان مجردًا من إنسانيته،ومن التكريم الذي أسبغه الله تعالى عليه.

الفصل الخامس
أزمة القيم وإشكالية التخلف الحضاري

أسباب ومظاهر الأزمة

ظلت الأمة العربية الإسلامية متماسكة البناء الحضاري، متألقة في سماء الإبداع والعطاء، ممثلة نموذجًا فذًا للنظام الذي يحقق للإنسان إنسانيته ويحفظ له كرامته ويضمن له فعالية مطردة في مجالات التقدم، ولم يتحقق هذا إلا بفضل ذلك المنهج الحضاري الشامل، الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يحتاجه الإنسان في مسيرته الحضارية إلا هيأه ووفره. وما هو قابل للاجتهاد بواسطة العقل، وضع له الضوابط الدقيقة التي تعصم العقل من الزيغ في حركته الاجتهادية، وبذلك وصلت الأمة الإسلامية قمة الازدهار وقمة العطاء... ولكن أتى عليها حين من الدهر، وجدت نفسها وقد ولى عنها ذلك المجد الزاهي، فرجعت القهقرى، وبتعبير آخر تخلفت وتأخرت، وحلت بها الأزمة.. فما هي الأسباب التي كانت وراء التخلف؟ وكيف السبيل إلى البعث الحضاري من جديد؟

أشير منذ البداية إلى أن هدف هذا الفصل ليس هو استعراض النظريات أو النماذج النظرية التي عالجت مشكلة التخلف -وهي كثيرة- والحلول المقترحة من قبلها، فليست طبيعة البحث وحجمه مما يتسع لذلك، بل كل ما سأحاول القيام به هو الإشارة إلى بعض

الأسباب والآليات التي تحكمت في مسلسل التخلف حتى احكم طوقه على العالم الإسلامي، وسأبدأ بتحديد بعض المفاهيم الأساس المستعملة في هذا الفصل:

مفهوم التخلف:

جاء في لسان العرب لابن منظور (مادة تخلف) ما يلي: «خلف الليث: الخلف ضد قدّام (...) وجلست خلف فلان أي بعده (...) والتخلّف: التأخر. وفي حديث سعد: فخلّفنا فكنا آخر الأربع أي أخّرنا ولم يُقدمنا، والحديث الآخر: حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم أي يتقدم عليهم ويتركهم وراءه، ومنه الحديث: «**استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**» (أخرجه مسلم)، أي إذا تقدم بعضهم على بعض في الصفوف تأثرت قلوبهم، ونشأ بينهم الخلف،وفي الحديث: «**لتسُونَّ صُفوفَكم أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم**» (متفق عليه)، يريد أن كلاً منهم يصرف وجهه عن الآخر ويوقع بينهم التباغض، فإن إقبال الوجه على الوجه من أثر المودة والإلف».

إن مفهوم التخلف يتضمن أو يفترض وجود نموذج يجسد التقدم وآخر متخلف عنه، فمشيت خلف فلان يعني أنني تخلفت عنه، وتخلفت عن الركب يعني أن تخلفي يقاس بالموقع الذي يحتله ذلك الركب في المسار الذي يفترض السير فيه. ومن هذا المنطلق نجد كثيراً من الكتاب والباحثين الذين أثاروا قضية تخلف المجتمع العربي المسلم، يرون أن هذا المجتمع متخلف بالنسبة للمجتمع الغربي وقد خضعوا في

نظرتهم تلك، للمقياس الذي أشاعه الغرب للتقدم والتخلف، وهو «اعتبار نموذجه ممثلاً للتقدم، واعتبار نماذج بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية نماذج التخلف، ولم يقصر ذلك على الجوانب التقنية والعلمية والصناعية ومستويات المعيشة، وإنما مدها إلى القيم والأخلاق ومكونات الشخصية، فاعتبر نموذجه معيار التقدم وأخذ يقيس عليه النماذج الأخرى، التي ستعتبر متخلفة بالضرورة ما دامت وحدة القياس هي النموذج الغربي»[1].

والواقع أننا عندما نحكم على أمة بالتخلف، لابد لنا من مقياس نستند إليه في ذلك الحكم، ولكن الذي ينبغي أن ينعقد عليه يقيننا، أن ذلك المقياس ليس هو إطلاقًا نموذج الغرب وحضارته المادية، وإنما هو النموذج الإسلامي المتكامل الذي تجسد على أرض الواقع ردحًا من الزمان وأشع بأنواره على البشرية كلها، ولا يزال إلى الآن وإلى الأبد مثالاً ترنو إليه الأبصار والعقول، التي تدرك المعنى الحق للحضارة والتقدم.. والسبب في ذلك واضح، وهو أن النموذج الغربي قد قام على أساس مادي صرف وعلى رؤية مبتورة لمفهوم التقدم مشتقة من رؤيته للكون والحياة والإنسان... وهي رؤية لا تحتل منها القيم الأخلاقية والفضائل التي تسمو بحياة الإنسان وتميزه عن الحيوان حيزًا يذكر.

ومن هنا، وجب تحرير عقول المسلمين من ذلك الاقتران الخطير الذي درجت على استساغته، وهو الاقتران بين التقدم ومجتمع العرب،

---

(١) منير شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ص١٧٨.

غافلين كل الغفلة، عن أن ذلك الطراز من التقدم إذا وضع في ميزان الإسلام، سيكون مصيره الرفض، لأنه يهتم بإشباع حاجات الإنسان المادية، ويخنق فيه حاجاته الروحية، وهو في النتيجة والمآل سينعكف على منتوجاته المادية ويدمرها تدميراً، في غياب الحصن الأخلاقي الذي يحمي مكاسب الإنسان الحضارية ويصونها من الفساد.

إننا عندما نحلل مكونات الحضارة الغربية في ضوء ما سبق، ننتهي إلى وضعها في قفص الاتهام، بل إننا لا نتردد لحظة في وصمها بوصمة التخلف، لأنها بعيدة بأوضاعها وأجوائها عن الوضع الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان. فبينما وتائر الإنتاج المادي في تصاعد، إذ بالإنسان يمعن في الارتكاس حتى وصل إلى هذه الصورة البائسة التي نراه عليها اليوم من تمزق وانحلال وعبثية عمياء. ومن هنا فإننا عندما نتحدث عن التخلف الحضاري للأمة العربية الإسلامية فلا يخطرن ببال أصحاب العقول الراجحة أننا نقيس الأمة الإسلامية على الحضارة الغربية، بل إننا نصف الأمة الإسلامية ،التخلف ونحن على يقين أن من أهم أسباب تخلفها الجري وراء نموذج الغرب، ومحاولة الاقتداء به والسير في ركابه ورؤية الحياة كما يراها هو، والاصطباغ بصبغته المادية التي حولت الإنسان إلى بهيمة سائمة، بل أضل سبيلاً. إن في «مجتمعنا العربي (الإسلامي) أزمة، لا بل أزمات (....) يعبر عنها في الممارسات السياسية والاجتماعية، والاقتصادية والتربوية والخلقية، وتأخذ طابع الازدواجية في السلوك، والانحراف

رغم الضعف الذي بدأ في أوصال الأمة الإسلامية بعد سقوط بغداد وأفول نجم الدولة العباسية، إلا أنه بفضل قدرة الإسلام على الانبعاث والتجدد، وبفضل خزان المشاعر الإيمانية والحس الإسلامي الذي كانت تنضح به قلوب المسلمين، نهضت ممالك إسلامية ردت للإسلام هيبته وأعادت له صولته من جديد... وكان آخر معقل من تلك المعاقل متمثلاً في الإمبراطورية العثمانية، التي «وقفت سوراً منيعًا في وجه أطماع الاستعمار في السيطرة على العالم طوال أربعة قرون تقريبًا، ووحّدت مناطق شاسعة من بلاد المسلمين، مما أعطى زخمًا في مقاومة الغزاة، كما كانت تشكل قوة في إبقاء راية الإسلام مرفوعة، على الرغم مما فيها من نواقص من وجهة النظر الإسلامية»(١).

إلا أن هذه الإمبراطورية العنيدة أصابها الوهن ودخلها الضعف وانحرفت عن مسارها الصحيح منذ «عهد جمعية (الاتحاد والترقي) التي حكمت من ١٩٠٨ وما بعد»(٢). فانتهى بها الأمر إلى الهرم والسقوط من جراء الانحراف المذكور والمخطط الصهيوني الذي كان يحفر فيها بمعاوله الرهيبة، مستثمراً الحركة الطورانية الداعية إلى القومية التركية وانفصالها عن العرب.. وبعد سقوط الدولة العثمانية، وقعت الأقاليم التي كانت تنطوي تحتها، نهبًا للاستعمار، الذي اغتنم ما سمي بتركة الرجل المريض.. لقد نهض الغرب واستخدم خيرات

---

(١) منير شفيق. الإسلام في معركة الحضارة، ص١٣٥.

(٢) نفس المرجع، ص١٣٤.

شبه الكلي عن أصالة المبادئ والقيم التي تنتمي إليها الأمة. والأزمة تلح علينا بصور عدة من زمن، ونراها تقعد وتهبط تبعًا لمؤثرات كثيرة وأحداث متلاحقة، إلا أن حدتها قد اشتدت وأصبحت تنذر بشر مستطير (....) منه تدهور الأمة وانحلالها وانعدام أثرها وفاعليتها، واختزال دورها إلى مستوى هامشي لا يعتد به»(١)

فهذه العناصر التي يتضمنها النص السابق، هي التي تشكل مظاهر الأزمة وبعض أسبابها الجوهرية.. وإذا كانت الحضارة تعرف بأنها: «ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة»(٢)، فإن سبب أزمة الحضارة لا بد أن يتمثل في الخلل الذي يحدث في العلاقة بين الإنسان والكون والحياة، تلك العلاقة التي تعود قواعدها وضوابطها إلى المنظور الذي ينظر من خلاله الإنسان إلى الأشياء. وفي الحالة التي نعالج الآن، وهي حالة المجتمع الإسلامي، يمكن أن نلاحظ، لدى تأملنا جيداً، أن انفصال ذلك المجتمع عن المحرك الذي أمده بقوة الدفع، فحقق ذلك النموذج الفريد وصاغ تلك التجربة الرائعة، هو سبب هذا الركود والهمود الذي أصاب الأمة الإسلامية. وهنا أحاول أن ألمح بعض الأسباب التي انتهت بالأمة الإسلامية إلى هذا التخلف الحضاري، بعد أن عاشت مرحلة من التماسك والقوة والمنعة، أخضعت فيها العالم وانتزعت منه الإعجاب.

---

(١) د. أحمد صيداوي، الغزو التربوي الغربي، مجلة الفكر العربي، عدد٢١/س٣.

(٢) د. محمد سعيد رمضان البوطي، من المسؤول عن تخلف المسلمين، ص٤٨/٤٩.

الأمة الإسلامية وقوداً لنهضته، وحقق مكاسب وأنتج حضارة مادية براقة انبهرت لها العيون المعشاة، فكان من آثار ذلك الانبهار السقوط في مغبة التقليد والمحاكاة... فماذ كانت النتيجة بعد التجربة المريرة؟

«لقد أثبتت الوقائع أن الأرضية الغربية التي سادت في بلادنا تحت شعار (الحداثة) لم تأت لتحقق تقدماً وتطويراً، لا على المستوى المادي، ولا على المستوى الثقافي والفكري، بل دمرت عوامل التقدم والتطوير حين حطمت مصادر الاستقلالية، وحولت الوطن الواحد إلى أوصال مقطعة وملحقة وتابعة. ورغم ذلك يقال للشعب: عليكم أن تتبعوا النمط الغربي، وتروا العالم ضمن رؤاه، وتتطوروا وفق مساره وسياقه»[1].

والنتيجة الحتمية التي كان لابد أن نحصدها من جراء هذا الدوران في فلك الغرب، هي التأرجح والمراوحة، «فلا نحن أبقينا صلاتنا المختلفة المنسجمة مع الماضي، تحت مظلة السنن الكونية للتطوير، وفي ميزان المنطق والعلم، ولا نحن حققنا شيئاً من أمنيات اللحاق بنهضة تشبه نهضة الآخرين، بل بقينا... نتهارج ونتخاصم في سجن هذا المنعطف الثقيل...»[2].

إن ما أصاب الأمة الإسلامية، فعطل طاقاتها، هو فقدانها (للجو الثقافي) -على حد تعبير مالك بن نبي- المثالي، الذي لا تتفتح الإمكانات إلا في ظله، ولا تزدهر البذور وتثمر إلا في تربته، تلك البذور

(١) منير شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ص١٢٤.

(٢) د. محمد سعيد رمضان البوطي، من المسؤول عن تخلف المسلمين، ص٤٨-٤٩.

هي عناصر الثقافة. . يقول مالك بن نبي، موضحا ضرورة ذلك الجو لقيام البناء أو المنهج التربوي اللازم لقيام الحضارة: «إن عناصر الثقافة تذوب في كيان كل من المجتمع والفرد، لتطبع أسلوب حياة الأول وسلوك الثاني، اللذين يجري التفاعل فيما بينهما بحيث لا يسمح المجتمع للفرد بالنشوز ولا الفرد للمجتمع بالانحراف، وهو ما يسمى بعملية النقد الذاتي، التي يعبر عنها الإسلام بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. هذا الوضع عندما يزول، نصبح أمام أزمة ثقافية، تعبر عن نفسها في تعذر تركيب العناصر الثقافية في منهج تربوي»[١].

إن هذا التعذر في تركيب العناصر الثقافية يقع ولا شك في المرحلة الثالثة من المراحل التي يمر بها المجتمع، والتي يرى مالك بن نبي أنها تتميز بتفكك في الغرائز يعوق هذه الأخيرة عن العمل في توافق وانسجام، ويسقطها في النزعة الفردية بحيث إن كل فرد يعمل لحسابه الخاص، مما يؤول بنظام الطاقة الحيوية إلى الاختلال ،فقدان قيمته الاجتماعية، ويكون ذلك علامة على انسلاخه من مراقبة نظام الأفعال المنعكسة الناشئ عن عملية التكيف. وهذا ما يؤدي إلى تفسخ شبكة العلاقات الاجتماعية نهائياً «وهو ما يطلق عليه في التاريخ، عصر الانحطاط، كذلك العصر الذي هيئ في المجتمع المسلم في ظروف القابلية للاستعمار، والاستعمار»[٢].

---

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص١٣٩-١٤٠.

(٢) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص٧١-٧٢.

لقد استطاع الاستعمار بمكره – واستفادته من قابلية المسلمين للاستعمار– أن يفتت بنية الشبكة الاجتماعية التي تحدث عنها مالك بن نبي من خلال مجموعة من المعاول التي أعطت أكلها المسموم، من قبيل العلمانية التي أضعفت سلطان القيم الإسلامية على نفوس أفراد المسلمين، فأصبحوا يسلكون في حياتهم اليومية منسلخين من تلك القيم التي تصنع التماسك في جسم المجتمع المسلم، «فكلما ظهر الوضع المدني أو العلماني في المجتمع، كلما ضعفت روح الأصالة في نفوس أصحاب الثقافة الوطنية أو الدينية، وكلما قوي الميل لديهم إلى تقليد من عداهم. وبذلك خف وزن القيم والمبادئ الإسلامية في المجتمع، وأصبحت أمور الدنيا وحدها –وبالأخص التطلع إلى الوظائف منها –ذات الإغراء وذات التأثير عليهم، كما هي ذات تأثير على غيرهم»[1].

إن فقدان الأخلاق سلطانها على النفوس في مجتمعنا الإسلامي، كانت هي قاصمة الظهر التي أحدثت شرخًا مهولاً في البناء الاجتماعي، أي أنها علة مباشرة في التخلف الذي نعاني منه. ونضيف –ونحن بصدد الحديث عن العلمانية– أن هذه الأخيرة كانت هي أصل الانشطار إلى طوائف، الذي ضرب المجتمع الإسلامي بعنف، بحيث أصبحنا أمام مجموعة جديدة تتألف من العاملين في الإدارات والشركات والبنوك وهم الذين يطلق عليهم (العصريين)، ومجموعة قديمة تتألف من أصحاب الثقافة الدينية تربط نفسها وتقصر حياتها

---

(١) د. محمد البهي، الإسلام وحل مشكلات المجتمع المعاصر، ضمن كتاب مشكلات المجتمع الإسلامي المعاصر، ص٢٠٢.

على العيش مع تراث الماضي بعيداً عن حركة الحياة العصرية، يضاف إلى هاتين المجموعتين جماعة أو طائفة ثالثة تتكون من خريجي المدارس الأجنبية المعادين للإسلام(١).

إن حديث رسول الله ﷺ: «**لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم**» وهو يتعلق بتسوية الصفوف في الصلاة، يمكن أن نستلهم منه معاني رائعة في هذا الباب الذي نتحدث فيه، وهو يتعلق بوضعية البناء الاجتماعي وما يعتريه من حالة التخلخل والضعف.. نستطيع أن نستلهم من ذلك الحديث النبوي الشريف، أن المجتمع المسلم ما لم تتوحد قلوب وأفكار أفراده حول محور واحد وقبلة واحدة، فسوف تكون قلوبهم شتى، ويحدث الله التباغض بينهم، فيضرب بعضهم وجوه بعض.

إن هذه الفرقة التي عصفت رياحها العاتية ببناء الأمة الإسلامية، تعود إلى غرس خبيث ألقى الاستعمار بذوره في تربة المجتمع المسلم. وهو غرس الأنانية وحب الذات، أي الاتجاه أو النزعة الفردية التي جعلت الفساد والتصدع والانفكاك يدب في أوصال المجتمع.

وإذا تساءلنا عن الوسائل والقنوات التي استخدمها الاستعمار لتمرير مفاهيمه وتنفيذ برنامجه التخريبي، فإن أول وسيلة أمامنا هي التعليم والإعلام، فقد عمل الاستعمار من خلال هاتين الأداتين

---

(١) د. محمد البهي، الإسلام وحل مشكلات المجتمع المعاصر، ضمن كتاب مشكلات المجتمع الإسلامي المعاصر، ص٢٠٢.

الخطيرتين على غسل العقول وإفراغها تمامًا من شحناتها الإسلامية التي تربطها بالعقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، وملئها بشحنات جديدة تقيم رباطًا مشوهًا بينها وبين حضارة الغرب، يتمخض عن نماذج بشرية غريبة.

إن جهود الاستعمار في تغيير معالم النظام التعليمي، أنتجت نظامًا تعليميًا غريبًا وعقيمًا في نفس الوقت، فعلى سبيل المثال نجد أن «النظام التعليمي السائد في مجتمعنا، في تركيبه لما يسمى (المواضيع المدرسية)، تفسير ضمني للدين ولموقع الدين، ولدوره في تربية الإنسان وحياته، كما هو أيضًا تفسير ضمني للمعرفة ولتجزئة المعرفة في عملية تحصيلها، وفي عمليات توظيفها في حياة الإنسان. فهذا النظام الذي يفصل بين الدين والعلم، ويجزئ المعرفة، نظام نشأ في حضارة تفصل بين العلم والدين، وتجزئ المعرفة.. حضارة لا يقتضي الدين فيها معرفة عالم الطبيعة (عالم الشهادة)، أو معرفة النفس على حقيقتها كأساس لمعرفة الدين، ولا يقتضي الدين فيها توظيف هذه المعرفة كأساس للإيمان أو لترويض النفس. فالعلوم الطبيعية ليست شرطًا من شروط الإيمان فيها. ولذلك كانت هذه الحضارة منطقية مع نفسها عندما فصلت الدين عن سائر العلوم والمعارف»(١).

كما أن الدين في المجتمع الغربي لا يقوم على غير الحوافز العاطفية، ولذلك فمناهج التربية الدينية فيه، تكتفي بالإثارات

---

(١) د. علي عيسى عثمان. النظام التعليمي السائد في المجتمعات الإسلامية واستبداله بنظام إسلامي، ص٢٨٣.

الوجدانية المجردة. والإسلام خلافًا لذلك، ينبني في جملة عقائده ومبادئه على أسس ومقتضيات عقلية ثابتة، «يستنهض لفهمها المنطق والفكر. فلو استعرت للتربية الدينية عندنا تلك المناهج العاطفية المجردة، لباءت بفشل ذريع ولما أورثت نتيجة تربوية سليمة. ومعلوم أن البنية العامة لمناهج التربية الدينية عندنا، مأخوذة من تلك الأسس والطرق التربوية المتبعة في الغرب»(١).

وهكذا تمكن الاستعمار من خلال نظامه التعليمي، أن يطمس معالم الوعي الإسلامي ويبلد الحس الإسلامي في نفوس الأفراد من خلال ما يلي:

١- إضعاف روح الاعتزاز لدى المسلم وإحلال محلها الشعور بالنقص إزاء الغرب والسعي إلى التغيير -إذا وجد هذا السعي- وفقاً للمفهوم الغربي.

٢- بث النزعة الليبرالية التي تتنافى مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أعظم ضابط لحياة المجتمع.

٣- محاولة الاستعمار إسقاط بعض القيادات الفكرية في شباكه، واتخاذها معاول لإحداث الخرق، بل لتعميقه، داخل البنيان الاجتماعي المسلم(٢).

إن هذاالبشر المستطير الذي اكتسح الأجيال المسلمة نتيجة للنظام

(١) د. محمد سعيد رمضان البوطي، منهج تربوي فريد في القرآن، ص٦-٧.
(٢) انظر آمال حمزة المرزوقي، النظرية التربوية الإسلامية، ص١٣٣-١٣٤، بتصرف.

التعليمي المسموم، قد عُزز أيما تعزيز من طرف وسائل الإعلام، التي تملك من أدوات السحر والإيحاء والاستقطاب ما هو كفيل باقتحام النفوس المهزوزة، وإحداث أثره الهدام وبث سمه الناقع، فالرواية والقصة والفيلم.. .إلخ، كلها أدوات وقنوات تتضافر لتلتف كالأفعى حول فكر المسلم ووجدانه، ولا تنفك عنه حتى تتركه كالحطام.

هذه بعض أسباب ونتائج ومظاهر أزمة التخلف الحضاري في المجتمع الإسلامي، وقد تبين لنا أن البناء الحضاري بدأ يتآكل، نتيجة لنسف أسسه العقدية وما يرتبط بها من قيم تربوية تقوم عليها الشبكة الاجتماعية المتماسكة. فما السبيل إلى إعادة نسج خيوط تلك الشبكة بما يضمن عودة الفرد المسلم والمجتمع المسلم أقوى ما يكونان وأصلب عوداً.. وبما يضمن تحصينهما من كل قوى الهدم والإفلاس؟ هذا ما سأحاول أن أجيب عليه في المحور التالي بإذن الله.

سبيل الخروج من أزمة التخلف

قبل أن أبرز معالم المنهج الذي يضمن الخلاص من الأزمة والانعتاق من ربقة التخلف، أشير إلى أن المجتمع المسلم لم يترك وشأنه يقرر مصيره بنفسه، ويحل مشاكله بمحض إرادته المستقلة، وإنما وقع -بفعل الإرث الثقيل الذي خلفه المستعمر وراءه -تحت طائلة الضغوط والتأثيرات التي مارستها القوى الاستعمارية، من خلال تلامذتها الذين ربتهم على أعينها وأكلأتهم برعايتها، بحيث شكل هؤلاء قوة أو طابوراً موصولاً بمراكز القرار الاستعمارية، أقحم نفسه في عملية إيجاد الحل لمعضلة

التخلف والركود التي يعاني منها المجتمع المسلم. ومن جملة الحلول التي فرضت على الأمة الإسلامية الحل الليبرالي الديمقراطي والحل الاشتراكي الماركسي، ولكن المصير الذي لاقاه كل من هذين الحلين هو الفشل، وهو أمر يتماشى مع طبيعة الأشياء وسنن التغيير.

فالحلول المطروحة، غريبة كل الغرابة عن تاريخ وكيان المجتمع المسلم، بل عن الإنسان من حيث هو إنسان وفطرته السليمة. وهي إنما طرحت لتبدد طاقة الأمة وتهدرها في التناقضات، وهي -أي الأمة- التي قام وجودها خلال التاريخ الطويل على أساس فلسفة التوحيد التي تلم الشمل وتوحد القوى في وجهة واحدة موحدة الأهداف.

ومن هنا يتبين لنا أن السر في إخفاق الحلول المستوردة في المجتمع المسلم، هو تلك الفجوة بل الهوة العميقة بينه وبين الغرب على المستوى النفسي والحضاري، بحيث إن الأيديولوجيات الغربية لم تستطع أن تنفذ إلى صميم أفراد المجتمع وتحرك كوامنهم، لأنها لم تخاطب الإنسان في جميع أبعاده. لقد خاطبت عقله دون أن تخاطب وجدانه وروحه، وقدمت له برامج اجتماعية دون أن تقدم له أجوبة مقنعة حول أسئلته الوجودية وأحواله الشخصية وعلاقته الأسرية والتزاماته الأخلاقية، وألزمته بالنضال الخارجي دون أن يكون لها سلطان على خلجات نفسه وأشواق روحه[(١)].

وبعد التجارب المريرة التي عرفتها الأمة العربية الإسلامية، لم يجد

---

(١) محمد يتيم، حركات التغيير وأزمة الأيديولوجيات، مجلة منار الإسلام، عدد١٠، السنة١٢، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

حاملو الفكر الغربي وممثلو أيديولوجياته في ديار المسلمين، لم يجدوا بداً من الإقرار بإخفاق الأيديولوجيات المستوردة في نقل المجتمعات الإسلامية من حال التخلف إلى حال النهوض والتقدم، لقد قالوها صراحة بعد لأي، وبعد عهد طويل من المكابرة والمواربة، والأمثلة أكثر من أن تحصى.

إن الأيديولوجيا الغربية كان لا بد أن تسقط وتلاقي الإخفاق لدى احتكاكها بالمجتمعات العربية الإسلامية لأنها تفتقد لشروط ومقومات النجاح، وهي: «أولاً: الإقناع الفكري الذي يستجيب لتطلعات الإنسان إلى المعرفة الحقة، حول القضايا الوجودية التي تقرر مصير الإنسان في الحال والمآل، والذي لن تهدأ له نفس ولن يرتاح له ضمير في ظل حرمانه من الحصول على أجوبة شافية عنها. وثانياً: منهج تغيير اجتماعي كفيل بتحقيق متطلبات الإنسان من الحرية والعدل والمساواة والكرامة، بما يتوافق وينسجم مع الأسس العقدية المناسبة لفطرة الإنسان»[1].

إن هذين الشرطين لنجاح العقيدة في استنفار طاقات الإنسان ودفعها في المسار الإيجابي، ليس لهما وجود في غير الإسلام، دين الله المنزه عن التحريف والتبديل، ففي ظل الإسلام وحده يرتبط منهج التغيير الحضاري بالعقيدة التي تأخذ بجماع كيان الإنسان، وتحول عنده مسألة الجهاد في سبيل تحقيق التقدم والازدهار إلى التزام بالعقيدة، يعتبر الإخلال به إخلالاً بمقتضياتها[2]. إننا ندرك هذه الحقيقة أجلى ما يكون

(١) محمد يتيم، حركات التغيير وأزمة الأيديولوجيات، مجلة منار الإسلام، عدد ١٠، السنة ١٢، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص١٠٣-١٠٤، بتصرف.
(٢) المرجع السابق، ص١٠٤-١٠٥.

عندما نلاحظ مدى التجاوب الذي حدث بين جماهير الأمة الإسلامية وبين الحركات الإسلامية التي انبجست من داخلها، معبرة عن همومها، حاملة لقضيتها بكل إخلاص.. إن كل هذه المعطيات الفلسفية والنفسية والاجتماعية، تجعل من عملية البناء الحضاري في ظل مذهبية الإسلام، عملية تلقائية لا اعتساف فيها ولا تكلف ولا قسر.

لا بعث حضاري في غياب الإسلام:

فالذي ننتهي إليه من خلال ما سبق هو التأكيد على القناعة الراسخة في وجدان وعقل كل مسلم حق، وهي أن لا سبيل إلى البعث الحضاري المنشود في غياب المنهج الإسلامي في البناء.. فما هي إذن الخطوات التي لا بد من القيام بها لإعادة البناء الحضاري؟

لقد سبق لنا أن لمسنا في المحور الأول من هذا الفصل، أن المجتمع المسلم قد اعترضته حالة من التفكك أودت بشبكته الاجتماعية، فآلت به إلى الانحطاط الذي لا يزال يتخبط في حباله، ومعنى ذلك أن المجتمع المسلم مطالب بالإعداد الواسع النطاق لبناء الشبكة الاجتماعية من جديد، أي لجعله يعيش المرحلة الأولى من المراحل التي يمر بها المجتمع، التي تحدث عنها مالك بن نبي، وهي المرحلة الروحية التي تكون فيها العلاقات الاجتماعية في أكثر حالاتها كثافة، لا في أكثرها امتداداً.. هذه الكثافة التي يعبر عنها القرآن الكريم بعبارة: (البنيان المرصوص) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤). و«يمكننا أيضاً -يقول

مالك بن نبي- أن نفسر هذه المرحلة بلغة علم النفس حين نقول إنها تتفق مع المرحلة التي يكون الفرد خلالها في أحسن ظروفه، أعني الظروف التي يكون فيها نظام أفعاله المنعكسة في أقصى فاعليته الاجتماعية، وتكون طاقته الحيوية أيضًا في أتم حالات تنظيمها»[1].

وهذه المرحلة تتميز بتوظيف جميع قوى المجتمع، وتكون هذه الأخيرة في تصاعد مستمر، وتقصي من طريق هذا المجتمع، خلال هذه المرحلة، كل عناصر التقاعس والتثبيط، وهو ما حدث في قصة (الثلاثة الذين خلفوا) المشهورة[2].

والسؤال المهم الذي يطرح نفسه علينا الآن يتعلق بالكيفية التي يتم بها بناء الشبكة الاجتماعية في المجتمع المسلم من جديد؟ يجيب مالك بن نبي عن هذا السؤال قائلاً: «إنه لكي يمكن التأثير في أسلوب الحياة في مجتمع ما، وفي سلوك نموذجه الذي يتكون منه، وبعبارة أخرى، لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي، ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية في مستوى الأفراد وفي مستوى المجتمع»[3].

بتعبير آخر، ينبغي معرفة العوامل والعناصر التي بمقدورها تفجير طاقات أفراد المجتمع الذي نريد أن نصل به إلى المستوى المنشود من العطاء والابتكار، ولقد تأكد لنا أن المجتمع المسلم لم تفلح في تحريكه

(١) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص٧٠.
(٢) المرجع السابق، ص٧٠-٧١.
(٣) نفسه، ص٧٢.

من عثاره وإيقاظه من نومه، أي من الأيديولوجيات الدخيلة التي زادته وهنًا على وهن، وأفسدته، ثم زرعت العوائق والأشواك في طريق عمليات التغيير الموضوعية.. ولقد ثبت لكل من له عقل راجح أن الحركات التغييرية صاحبة الشرعية، والمخولة لإحداث البعث الحضاري، هي التي تتخذ الإسلام منهجًا، عن اقتناع جازم ويقين راسخ بأنه هو وحده الحل والخلاص، ولا حل ولا خلاص من دونه.

الخطوة الأولى في سبيل البعث الحضاري:

وإذا كنا قد وضعنا أيدينا على الداء العضال الذي يسحق نفس المسلم في هذا العصر -نتيجة المخطط الاستعماري الرهيب- وهو داء الفصام بين جانبه الروحي وجانبه الاجتماعي، فإن الخطوة الأولى التي تضع المجتمع المسلم على الطريق الصحيح، هي إزالة حالة الفصام التي تعصف بكيان المسلم.. «فالمشكلة التي نواجهها إذن ذات جانبين: جانب اجتماعي وجانب نفسي»[1].

فالمهمة الأولى: في معالجة هذا التخلف الحضاري -الذي يطبق على الأمة الإسلامية- هي تصحيح العقيدة وتقويتها في نفوس المسلمين، حتى ينتج عنها ما تقتضيه من تأثير على كل ميادين الحياة. ويرتبط بتصحيح العقيدة تبصير الإنسان المسلم والجماعة المسلمة بوظيفتهم في الحياة لكي لا تتحول حياتهم إلى عبث، ذلك أن «العالم الإسلامي اليوم إنما يعاني من وطأة تخلف، هذا، بسبب

(١) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص٩٩.

الغشاوات والحجب الكثيفة التي أسدلت على بصيرته، فأقصته عن معرفة حقيقة الإنسان والحياة التي يتمتع بها، والدنيا التي تطوف من حوله، وعن معرفة المهمة التي خلق الإنسان للنهوض بها في هذه الحياة»[١]. إن تعريف المسلم بهذه الأمور الأساسية، يجعله في منجىً من التأثيرات المدمرة، التي تنبعث، بل تتدفق كالسيل، من التيارات الأجنبية التي تتصارع من حوله، ويكسبه الميزان الدقيق الذي يزن به الغث والسمين، ويميز به بين الحق والباطل.

والمهمة الثانية: في طريق الخروج من التخلف، تتجسد في تصحيح القيم الخلقية التي اكتسبت خلال عصور الانحطاط طابع السلبية والتثبيط، فنتيجة لأوضاع التخلف أخرجت كثير من القيم الإسلامية عن مفهومها الحق، فالصبر وهو قيمة إسلامية عظيمة الشأن، تحول إلى دعوة للخنوع واستساغة للمذلة والطغيان، بدلاً من الصبر على مشاق العبادة والجهاد ومصاعب بناء الحياة، والصبر على الأذى في سبيل تحقيق المطامح العظيمة للمسلمين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٢)، ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦)[٢]. وقس على ذلك مختلف القيم التربوية التي ينبغي أن تأخذ مفاهيمها الصحيحة، في ضوء الكتاب والسنة وسيرة الرسول ﷺ وصحبه الكرام.

(١) د. محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص١٦٥.
(٢) محمد باقر الصدر، مرجع سابق، ص٣٨.

إن إنجاز هاتين المهمتين يحقق «تغييراً يمتد إلى المساحات كافة، وسائر المكونات النفسية الأساسية: العقلية والروحية والجسدية وكل العلاقات والبنىٰ الداخلية مع الذات ومع الآخرين، والتي تمكن الإنسان المسلم والجماعة المسلمة من مواجهة حركة التاريخ»(١).

وإذا كانت جهود المسؤولين عن قيادة عملية البعث الحضاري، مطالبة بأن تعيد العقيدة إلى موقعها اللائق في قلوب المسلمين، وأن تعيد القيم التربوية إلى معانيها الحقة والإيجابية، فإن من القضايا الأساسية التي ينبغي أن تحتل مركزاً لائقاً في اهتمام هؤلاء المسؤولين من قادة الفكر والتربية، قضية بناء العقل المسلم، بحيث يعود إلى فاعليته ونشاطه، ولا يظل حبيس التبلد والجمود الذي ران عليه خلال العصور المظلمة.. ومن مقتضى ذلك البناء، أن نعود العقل المسلم على التحليل العلمي والموضوعي للأشياء، بحيث يأخذ في اعتباره مختلف العناصر المكونة للظواهر، ويبتعد عن أساليب الإسفاف التي تنحدر إلى السب والشتم والقذف.. «إن العقلية التي أراد القرآن أن يكون جدله لبنة في بنائها وتكوينها، هي عقلية متدبرة فاحصة، تحلل بهدوء وتشرح بمرونة، تأخذ من الواقع لتغيير الواقع، وتطلب الحق بعدل في التحليل، وعدل في استمداد النتائج، وعدل في القول، مع تخلص من العبارات السحرية والكلمات المطاطة، وكل ما ينم عن فوضى في التفكير واضطراب في المنطق»(٢).

(١) د. عماد الدين خليل، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص١٤٠.
(٢) محمد التومي، الجدل في القرآن الكريم، ص٦.

إن بناء العقلية الإسلامية على أساس هذه الروح المنهجية الرصينة، كفيل بتزويدها بخاصية المرونة، وبذكاء الحس الذي يمكنها من انتقاء العنصر النافع وسط ركام من المعطيات والأوضاع المنحرفة. فالحياة المعاصرة تزخر بالبدائل والاختيارات التي تولد الحيرة لدى الإنسان، وتغذي تلك الحيرة وسائل الإعلام والدعاية التي تنفذ إلى صميم النفوس، وليس هناك من مخرج من هذه الحيرة والاضطراب إلا بعد القدرة على الترجيح الصحيح بين الحالات المتعددة. هذه القدرة لا تتحقق «إلا ببث روح العلم وروح النقد وروح الاستدلال الصحيح»[١]. ولنا في القيم الإسلامية وفي العلوم الإسلامية ما يسعفنا، إن نحن أحسنا استثماره، لتحقيق هذا الهدف، وأبرز تلك العلوم في هذا المقام أصول الفقه الذي تتجمع فيه قواعد العلم والفكر والفقه، والمقصود بالفقه هنا (عموم الفهم والعلم واستقامة التفكير وسداد الرأي)[٢].

وتحقيق هذا الهدف يقتضي منا قبل ذلك أن نطهر أجواءنا وعلاقاتنا الاجتماعية من بعض العادات التي لا تقوم على أساس من الحق، من قبيل عادة التقليد والمحاكاة المطلقة وغير المشروطة للآباء، وهذا فهم مغلوط لمفهوم البر بالآباء، إن مثل هذه العلاقة تؤثر سلباً على قدرة الأبناء على الابتكار والإبداع. وإذا أضفنا إلى هذه العادة سعي المجتمع لحصر سلوك الأفراد في إطار الضمير الاجتماعي ولو كان خاطئاً، إذا أضفنا هذا، أدركنا مدى الإعاقة التي يتعرض لها العقل

---

(١) أحمد الريسوني، حاجتنا إلى علم أصول الفقه، مجلة الهدى، عدد رجب ٨-١٤هـ / فبراير ١٩٨٨م.
(٢) المرجع السابق، هامش، ص٢٦-٢٧.

المسلم، والضربة القوية التي تتلقاها النزعة إلى الابتكار والتجديد[1].

لا بد من إعداد يحمي المكاسب:

وإذا كانت العمليات المذكورة آنفًا تستهدف التغيير الذاتي للفرد المسلم من خلال تسليحه بالأسلحة الفكرية والمنهجية والقيمية، فإن هذه الأسلحة تحتاج إلى الحصن الذي يحميها من الصدأ والتلف. وهذا الحصن، ما هو إلا الإعداد الذي يحمي الجماعة المسلمة بالدرجة الأولى -ومن ثم الفرد المؤمن- من عمليات التضييق والحصار التي تستهدفها من طرف أعداء الإسلام. والقرآن الكريم يحث على ذلك الإعداد بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠)[2].

إن الأهمية القصوى لهذا الإعداد الذاتي تتجلى لنا من خلال الآثار المدمرة التي أصابت جوّنا الحضاري بسبب فتح الأبواب على مصراعيها، لتدخل منها الرياح العاتية للغزو الثقافي الغربي التي أحالت مجتمعنا المسلم إلى هذه الصورة البائسة.

وغير خافٍ أن هذه الإجراءات الوقائية تؤتي أكلها وتؤدي وظيفتها بعد إعادة بناء الشبكة الاجتماعية في ضوء المنهج التربوي الإسلامي، أي بعد إخلاء النفوس من المحتويات الخبيثة التي خلفتها

---

(١) د. سيد دسوقي حسن، د. محمود محمد سفر، ثغرة في الطريق المسدود، ص٤٣.

(٢) د. عماد الدين خليل، مرجع سابق، ص١٤١- ١٤٢.

عهود الاستعمار، ولا تزال تتأكد وتتخذ طابعًا مأساويًا في إلحاق المسخ بالشخصية المسلمة، مع استمرار قنوات الغزو الفكري والثقافي في مهاجمة عقول ونفوس المسلمين.. إن عملية إزاحة هذا الإرث الاستعماري المتضافر مع الجمود والتحجر الفكري عند بعض شرائح المجتمع، ليست بالأمر المستحيل إذا ما خلصت النيات وصح العزم وتضافرت الجهود، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد انطلق المسلمون في عهده من نقطة الصفر.. وفي إطار الإمكان المتاح لهم في ذلك الزمن، استطاعوا أن ينجزوا مهماتهم الحضارية بجميع ميادينها السياسية والاجتماعية والعسكرية، بدون ضعف ولا عقد ولا مركبات مرضية، بل بحزم وعزة نفس واقتحام للعقبات.

إن القوة التي انطلق بها المسلمون في ذلك الوقت قوة هائلة، «كأنما معامل ضرب Coéfficient تدخل في فاعلية وسائلها البسيطة، فجعلها كافية لإنجاز المهمات من ناحية، وجعلها تتكتل في آن واحد من ناحية أخرى(...) فالعلاقة النسبية بين الإمكان الحضاري والإرادة الحضارية: علاقة سببية تضع (الإرادة) في رتبة السبب بالنسبة للإمكان»(١). فما أحوجنا أن نتمثل منهج ذلك الرعيل في المواجهة والبناء والتحدي للأعداء ورد كيدهم في نحورهم، فهل نحن بهم مقتدون؟!

---

(١) مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص٦٤.

نتائج البحث

بعد وضع اللمسات الأخيرة لهذا البحث المتواضع -بتوفيق من الله- يجدر بي أن أجمل النتائج التي انتهى إليها:

١) إن الإنسان -مطلق الإنسان- محكوم عليه بالخسران والإفلاس، ولن يخرج من هذا الحكم إلا من تشبع بروح الإيمان الحق، وأثمر لديه هذا الإيمان عملاً صالحًا تصلح به الحياة وترشد معالمها. وتعبر سورة العصر أبلغ تعبير عن هذه الحقيقة. بعبارة أخرى، لن تزكو النفس الإنسانية وتمتلئ باتجاهات الخير إلا بحملها لقيم الخير والصلاح المنبثقة من دين الله الحق، الذي هو الإسلام. وهذا هو الجواب الحاسم على المختلفين حول هوية الإنسان، أخير محض هو بفطرته أم هو شر صرف على العكس من ذلك؟

٢) إن بذر القيم التربوية التي هي قوام منهج الإسلام الشامل في نفوس الأفراد، هي الضمان لتحقيق أهداف التربية الإسلامية. ومن هنا فتحديد الأهداف لا بد أن يراعي صفة الشمول التي تكتسبها تلك القيم، بحيث تتكامل فيها النواحي العقدية مع النواحي المنهجية، وهذه مع النواحي الأخلاقية.. وفي غياب هذا التكامل، تذهب الجهود المبذولة هدراً وتنتهي إلى بناء مهزوز، وطريق مسدود.

٣) ترتبط القيم التربوية في أمة من الأمم، ارتباطًا صميمًا بثقافتها، وعليه فإن فصل القيم التربوية الإسلامية عن إطارها الثقافي السليم، ودمجها في مناخ من الازدواجية الثقافية، أو تركها تحت طائلة الغزو الثقافي، يعرضها للذوبان، وينزع منها الفعالية في صياغة الشخصية الإسلامية القوية وصنع الواقع الحضاري السليم.

٤) إن الصراع بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية (بمفهومها الحضاري الشامل)، لا بد أن يحتدم في الاتجاه الإيجابي الفعال الذي ينتهي إلى تحرير الثقافة الإسلامية والقيم المنبثقة منها، من أجواء الثقافة الغربية القائمة على أسس ومقومات مناقضة لأسس الإسلام ومقوماته، التي منها الربانية والثبات. فالثقافة الإسلامية تعبر عن قيم قائمة «على القيم الدينية والأخلاقية المستمدة من كتاب الله، ومن ثم فإن الهدف من مثل هذا اللون من ألوان التعليم هو بناء الإنسان المسلم، الراسخ الإيمان بالله، الذي لا يتعدى حدود الله، بل يحاول أن يفهم ظواهر الكون، خارجية أم داخلية، في ضوء قدرة الله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء.. أما نظام التعليم الحديث، فإنه يحاول أن يفسر أصل الوجود وظواهر الكون التي يتعامل بها الإنسان في حياته اليومية دون الرجوع إلى الله، وإن لم يقل بذلك صراحة»(١).

٥) إن الوضعية المأساوية التي آلت إليها أحوال الثقافة الإسلامية، إنما مردها إلى افتقاد المسؤولين عنها إلى ذلك الميزان الدقيق، الذي تضبط وتقاس به الثقافة الحقة من المزيفة.. وهذا الميزان الدقيق هو الذي يقوم على الربانية والوحدانية والإيجابية، والواقعية والثبات.. بجملة واحدة: الميزان الذي ينهض على منهج الإسلام.

٦) «إن أزمة العالم الإسلامي -يقول مالك بن نبي- منذ زمن طويل، لم تكن أزمة في الوسائل وإنما في الأفكار، وطالما لم يدرك هذا العالم تلك

---

(١) د. سيد سجاد حسين، ود. سيد علي شريف، ترجمة د. أمين حسين الرباط، م.سابق، ص٧٣.

الحقيقة إدراكًا واضحًا فسيظل داء الشبيبة العربية الإسلامية عضالاً، بسبب تخلفها عن ركب العالم المتقدم، فعلى المربين في البلاد العربية الإسلامية أن يعلموا الشبيبة كيف تستطيع أن تكشف طريقًا تتصدر فيه موكب الإنسانية، لا أن يعلموها كيف تواكب الآخرين في طرائقهم أو كيف تتبعهم»[1]. وهذا يعني أن المخرج من الأزمة المذكورة يكمن في تشرب القيم الإسلامية في أبعادها الشاملة من طرف الشباب، وفي خوض هؤلاء لمعركة الحياة، برؤية نقدية للواقع قوامها الحس الإسلامي.

٧) وفي شأن القيم التربوية بين التطور والثبات، انتهى البحث إلى قناعة راسخة مفادها أن التركيز على قدرات الإنسان واستعداده الفطري لمعانقة الحقيقة، «نقل مهمة التربية نقلاً جذريًا وغيّر غاياتها تغييراً أساسيًا. فبعد أن كانت مهمتها نقل ما توارثه الآباء والمجتمع، صارت مهمتها توفير ما يلائم فطرة الإنسان من نمو عقلي وخلقي ووجداني، وصارت غايتها كمال هذه الفطرة، وبهذا الانتقال ارتقت التربية (من منظور إسلامي) من ضيق وتعدد نسبية المجتمعات المختلفة، إلى تربية عالمية ترتبط بحقيقة الإنسان نفسه، أينما كان وفي أي عصر كان»[2]. وعلى هذا الأساس، فالقيم التي تحقق الانسجام مع الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان، قيم واحدة ثابتة، وأن تطور الحياة إنما يحصل في إطار ذلك الثبات.

٨) القيم التربوية لا تقوم على فراغ وإنما على أساس رؤية شمولية للكون، وبقدر ما تكون الرؤية كاملة في بنائها، منبثقة من العلم الشامل

---

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص١٧١-١٧٢.

(٢) عيسى عثمان، مرجع سابق، ص٢٨-٢٩.

بحقيقة الإنسان والكون والحياة، بقدر ما يكون نسق القيم القائم عليها مستجيباً لأشواق الإنسان ولحبه العميق للحق والفضيلة، ومن هنا فكل نسق من القيم قائم على غير التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، مصيره الفشل والسقوط... والواقع الذي عانته وتعانيه البشرية خير شاهد على هذا الأمر. والصراع بين القيم التربوية المادية والقيم التربوية الإسلامية، أثبت سقوط الأولى وذبولها كما أثبت تألق الثانية وارتقاءها، وأنها ملاذ الإنسان لتحقيق إنسانية سامية ومجتمع رفيع.

٩) إن من خصائص التربية الإسلامية الممتازة، ملاءمتها فئات البشر على اختلاف قدراتهم واستعداداتهم وملكاتهم، وهو ما اصطلح على تسميته بالفروق الفردية. فهذه الفروق تعبر عن نفسها في كل شيء، في القدرات العقلية، وفي الخصائص النفسية، وفي المقدار الذي تجنيه النفوس من القيم التربوية ومكارم الأخلاق، ولذلك كانت درجات الكمال متفاوتة. فالقيم التربوية الإسلامية هي وحدها التي تحقق التجانس بين الناس داخل إطار من الاختلاف ما داموا مجتمعين في ظل نسق واحد من القيم، متحركين من خلاله. أما القيم التربوية المادية ذات البعد الواحد، فهي تبدد طاقات الإنسان وتنهك قواه نتيجة إطلاق العنان لنوازع الشر فيه التي تعصف بكل شيء.

١٠) إن القيم التربوية التي تشكل قوام النظام التربوي، لا بد أن تأخذ بعين الاعتبار والتقدير خصائص التصور الإسلامي للإنسان ولعلاقته بالبيئة حتى يتحقق التحكم في مسار النمو الإنساني على الوجه الإيجابي. فإذا كان غير المسلمين يتركون الإنسان ينجرف مع تيار

التغييرات الاجتماعية، فإن المسلمين يقومون بتلك التغييرات «ويحكمون عليها في ظل الشريعة الإسلامية، وطبقًا (للوحي الإلهي) (...) وبعبارة أخرى، فإن عالم الاجتماع المسلم يعتبر التغيرات الاجتماعية التي تتعارض مع الشريعة أمرًا لا يتفق مع طبيعة الإنسان الأصيلة»(١).

١١) إن نسق القيم التربوية الإسلامية نسق فريد، وعندما طبق في دنيا الواقع أدى إلى صنع جيل فريد، صنع المعجزات وارتاد الآفاق، وإن الرجوع الصادق الحكيم إلى استلهام ذلك النسق كفيل بصنع أجيال تحاكي ذلك الجيل الفريد، وترتفع إلى مقام قيادة البشرية من جديد.

١٢) إن المصدر الذي تستقى منه القيم التي يقوم عليها النظام التربوي الإسلامي هو الوحي الإلهي، إذ العقل الذي تستند إليه المذاهب المادية الوضعية في ذلك ليس مبرءاً من الهوى، فضلاً عن كونه محدود الآفاق في علمه بحقيقة الإنسان والحياة.

وارتباط الأخلاق بالدين، قائم على أساسين: الأساس الأول: يتعلق بصحة ومصداقية الأخلاق الصادرة من الدين وملاءمتها للفطرة. والأساس الثاني: يتعلق بالشحنة القوية التي تتحرك بها الأخلاق عبر النفوس، والتي تستمد قوامها من مبادئ الدين.

١٣) لقد ظلت قيم الإسلام التربوية تؤتي أكلها بإذن ربها عبر عصور التاريخ الإسلامي، واستمر ذلك حتى في العصور التي وصفت بالضعف وخفوت جذوة الإسلام، إلا أن الضربات القوية والمتلاحقة التي تداعى لها المجتمع الإسلامي، إنما جاءت من الاستعمار الحديث

---

(١) سيد سجاد حسين، ود. سيد علي أشرف٦، أزمة التعليم الإسلامي، ص٨٠.

وأدواته من استشراق وتبشير. وتجلى أبرز مظهر لجهود الاستعمار، في سقوط الخلافة الإسلامية في تركيا.

١٤) إن خفوت جذوة الإسلام لا يعني انطفاءها، فمن أسرار الإسلام العظيمة قابليته للتجدد والانبعاث المستمرين، وتلك طبيعته التي لا تنفك عنه، ما دام في الأرض قرآن يتلىٰ ويدرس، وقلوب مسلمة تتوق لرؤية شرع الله يطبق، وعقول وسواعد تجاهد من أجل ذلك.

١٥) القيم التربوية الإسلامية هي من الشمول بحيث يؤدي امتصاصها والتشبع بها إلى بناء الشخصية الفذة المتكاملة، المؤهلة لأن تفهم الكون والحياة من حولها، وتتخذ موقفًا إيجابياً يرتقي بالحياة ويرشد مسارها في الاتجاه السديد الذي يرتفع بالإنسان إلى مستوى التكريم الإلهي، ذلك أن النسق القيمي الإسلامي لم يترك جانبًا من جوانب الإنسان إلا أشبعه، ودفع به ليعمل في تناغم وتكامل مع الجوانب الأخرى، وصولاً إلى تحقيق الإبداع والابتكار أولاً، والحفاظ على ثمراته من الإتلاف ثانيًا. والعكس تماماً هو ما آلت إليه الإنسانية في ظل النسق المادي للقيم، حيث أدى الاختلال في التوازن داخل النفس التي صيغت بالقيم المادية، إلى إتلاف مكتسبات الإنسانية وتهديدها بالدمار.

١٦) إن من الحقائق البدهية، أن النظام القيمي الذي يشكل بناء الإنسان النفسي والعقلي، يؤثر على بناء الشخصية الفردية، كما يؤثر على كيان المجتمع والحضارة بوجه عام. فكلما كان النسق القيمي شاملاً ومتكاملاً ومؤسسًا على علم دقيق بحقيقة الإنسان وأصله ووظيفته ومآله، كلما أدى إلى آثار إيجابية وبناءة على المستويات المذكورة

الثلاثة.. وكلما كان النسق القيمي مليئًا بالثغرات، قائمًا على جهل بالإنسان وقواه ووظيفته، كلما كان ذلك مفضيًا إلى خلل فظيع، على مستوى الشخصية والمجتمع والحضارة.. والمقارنة بين النسق القيمي الإسلامي، والنسق القيمي المادي تبرز بوضوح هذه الحقيقة الناصعة، فالأول صنع نماذج شخصية رفيعة، ومجتمعًا طاهرًا، وحضارة إنسانية زاهرة، بينما الثاني تمخض عن نماذج شخصية مهزوزة، ومجتمعات مريضة مختلة، وحضارة منخورة عاهرة، وهنا تتجلى فداحة الجرم الذي يقترفه كثير من المسؤولين عن التربية في البلاد الإسلامية، بترك نظامهم التعليمي نهبًا لمفاهيم وتصورات وقيم الغرب.

١٧) إن سبب أزمة الحضارة لا بد أن يتمثل في الخلل الذي يحدث في العلاقة بين الإنسان والكون والحياة، تلك العلاقة التي تعود قواعدها وضوابطها إلى المنظور الذي ينظر من خلاله الإنسان إلى تلك الأمور، وإلى نوعية القيم التي توجه حركة الإنسان وتحكم سلوكه.. فانفصال ذلك المجتمع عن الطاقة التي أمدته بقوة الدفع، كان لا بد أن يدخله شيئًا فشيئًا إلى النفق المظلم، نفق التخلف والجمود.

١٨) «لقد أثبتت الوقائع أن الأرضية الغربية التي سادت في بلادنا تحت شعار (الحداثة)، لم تأت لتحقق تقدمًا وتطويرًا، لا على المستوى المادي، ولا على المستوى الثقافي والفكري، بل دمرت عوامل التقدم والتطوير حين حطمت مصادر الاستقلالية، وحولت الوطن الواحد إلى أوصال مقطعة وملحقة وتابعة»[١].. وأبرز مظهر لذلك

(١) د. محمد سعيد البوطي، من المسؤول عن تخلف المسلمين، ص٤٨-٤٩.

التدمير، إتلاف الجو الثقافي السليم الذي نسجت في ظله خيوط الشبكة الاجتماعية التي قام عليها بناء المجتمع الإسلامي القوي.

١٩) يعتبر التعليم والإعلام معولين خطيرين، استخدمهما الاستعمار لتدمير العقول وإفراغ النفوس من القيم الإسلامية، وعلى سبيل المثال فالنظام التعليمي السائد من خلال تركيبه لما يسمى (المواضيع المدرسية) تفسير ضمني للمعرفة التي يفصل فيها الدين عن العلم والحياة.

٢٠) إذا كان سبب تخلف وانحطاط المجتمع راجعًا إلى تفكك شبكته الاجتماعية وذوبان عناصرها الثقافية، فإن المخرج من التخلف يكمن في إعادة بناء تلك الشبكة الاجتماعية.. والمدخل إلى ذلك البناء هو جعل الأمة تعيش المرحلة الروحية التي تكون فيها العلاقات الاجتماعية أكثر كثافة، وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بالبنيان المرصوص، كما يقول مالك بن نبي[١].

٢١) تفسيراً للقناعة السابقة، نقول: إن المهمة الأولى التي ينبغي القيام بها لعلاج معضلة التخلف الحضاري، تكمن في تصحيح العقيدة في النفوس.. والمهمة الثانية تكمن في تصحيح القيم والمفاهيم الخلقية التي اكتسبت خلال عصور الانحطاط طابع السلبية والتثبيط.

والله ولي التوفيق وهو يهدي السبيل، والحمد لله أولاً وأخيراً، والصلاة والسلام على المبعوث بشيراً ونذيراً.

---

(١) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص٧٠.

الفهرس

وكـــــــلاء التـــوزيـــــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	□ دار الثقافة □ دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤١٤١٨٢ ٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ ـ الدوحة فاكس: ٤٣٦٨٠٠ ـ بجوار سوق الجبر
السعودية	□ مكتبة الوراق	٤٥٥١١٤٢ ـ ٤٥٠٩٠٥٧	ص.ب: ٩ الرياض ١١٤١١ فاكس: ٤٥٣٠٠٧١
الإمارات	□ مكتبة علوم القرآن	٣٧٤٤٤٥	ص.ب: ٢١٦٣٣ ـ الشارقة فاكس: ٣٦١١١٠ ـ الإمارات
البحرين	□ مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨ (المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ ـ البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويت	□ مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ ـ حولي ـ شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
الأردن	□ مؤسسة الفريد للنشر والتوزيع	٥٦٠١٠٩٩	ص.ب: ٩٦٠٦٥٤ ـ عمان فاكس: ٥٦٩٨٩٢٩
اليمن	□ مكتبة الجيل الجديد	٧١٣٦٣ ـ ٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١ ـ ٢٧٠٣٨	ص.ب: ٥٤٤ ـ صنعاء
السودان	□ دار التوزيع	٧٧٥٥٨٥ ـ ٧٧٩٤٦٠	ص.ب: ٣٥٨ ـ الخرطوم
مصر	□ مؤسسة توزيع الأخبار	٧٤٨٨٤٤ ـ ٧٥٨٨٨٨ ٧٤٨٨٨٨	ص.ب: ٧ ـ القاهرة فاكس: ٥٧٤٨٧٠١
المغرب	□ الشركة العربية الأفريقية للتوزيع «سبيرس»	٢٤٩٢٠٠	ص.ب: 13008 - 70 زنقة سجلماسة الدار البيضاء 5 ـ فاكس: ٢٤٩٢١٤
الجزائر	□ وكالة القبس للنشر والتوزيع	٩٢٨١٩٤	ص.ب: 431 قسنطينة م ر ـ الجزائر فاكس: ٩٤١٠٦٦ ـ ٩٤٤٢١٨
إنكلترا	□ دار الرعاية الإسلامية	(01) 272-5170/ 263 - 3071	Muslim Welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax : (071) 281 2687 Registered Charity No: 271680

ثمن النسخة

الأردن	(٥٠٠)	فلس
الإمارات	(٥)	دراهم
البحرين	(٥٠٠)	فلس
تونس	دينار واحد	
السعودية	(٥)	ريالات
السودان	(٤٠)	ديناراً
عُمان	(٥٠٠)	بيسة
قطر	(٥)	ريالات
الكويت	(٥٠٠)	فلس
مصر	(٣)	جنيهات
المغرب	(١٠)	دراهم
اليمن	(٤٠)	ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا، دولار أمريكي ونصف. أو ما يعادله.

مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٧٣٠٠

فاكس : ٤٤٧٠٢٢

برقياً : الأمة ـ الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ ـ الدوحة ـ قطر

موقعنا على الإنترنت :

www.islam.gov.qa

رقم الإيداع ٩٩/٢٩٢٧

الترقيم الدولي

I.S.B.N

977-08-0806-7

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
مـركـز البحـوث والدراسـات

جائـزة مكتبـة الشيـخ

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهاماً في تشـجيع البحـث العلمي ، تنظم مكتـبة الشـيخ علي ابن عبد الله آل ثاني رحمه الله الوقفية، مـسابقة بحثية في مجال العلوم الشرعية والفكر الإسلامي، جائزتـها خمس وسبعون ألف ريال قطري .

موضوع الجائزة لهذا العام : «**قضايا البيئة من منظور إسلامي**».

شروط الجائـزة :

١ ـ يُشترط في البحـوث المقدمـة، أن تكـون قد أُعدّت خصيصاً للجائـزة، وألا تكون جزءًا من عـمل منشور، أو إنتاج عـلمي حصل به صاحـبه على درجة علمية جامعية، وأن تتوفر في هذه البحوث خصائص البحث العلمي، من حيث المنهج والإحاطة والتوثيق، وسلامة الأسلوب والجدة والابتكار .

٢ ـ يُقدم البحث من ثلاث نسخ، مكتـوباً على الآلـة الكاتبـة، ويفضل أن يكون مكتوبًا علـى الحاسوب، على ألا يقل عـدد صفحـاته عن مائتين وخـمسين صفحة، ولا يزيد على ثلاثمائة صفحة "فلوسكاب" .

٣ ـ يحق للجهة المشرفة سحب قيمة الجائـزة، إذا اكتشفت أن البحـث الفائـز قـد نُشر سـابقًا، أو قُدِّم إلى جهـة أخـرى، أو لغرض آخر، أو مسـتلاً من رسالة علمية.

٤ ـ يُرفق مع البحث ترجمة ذاتية لصاحبه وثبتًا بإنتاجـه العلمي المطبوع وغير المطبوع، بالإضافة إلى صورة جواز السفر وصورة شخصية حديثة.

٥ ـ آخر موعد لاستلام البحوث نهاية شهر سبتمبر (أيلول) من عام ١٩٩٨م.

٦ ـ تعرض البحـوث على لجنـة مـن المحكمين، يتـم اختيـارهـم فـي ضـــوء موضوع الجائزة .

العنوان البريـدي : ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي :

ص . ب : ٨٩٢ - الدوحة - قطر

لمزيد من الاستفسار ، يرجى الاتصال على :

هاتف : ٣٢٤٥٨٤ ـ ٣٢٤٥٨٦ ـ ٣٢٨٢٥٤ ـ فاكس : ٠٠٩٧٤ ـ ٤٣٦٠٧٠

كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

ص . ب : ٨٩٣ - الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي والتغيير الحضاري، وترشيد الصحوة، في ضوء القيم الإسلامية .
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة والموضوعية، والمنهجية .
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره .
- أن يُوثَّق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث .
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق .
- أن يكون البحث بخط واضح، ويفضل أن يكون مكتوباً على الآلة الكاتبة ، وألا يزيد عن مائة صفحة (حجم فولسكاب) تقريباً .
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد . .
- تُرسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.

تقدم مكافأة مالية مناسبة

هذا الكتاب .. يعتبر اجتهاداً مقدراً لإعادة النظر في أنساق القيم التربوية التي توجه السلوك، واستلهام التراث للإجابة عن أسئلة الحاضر، والنظر في كيفية تنزيل القيم التربوية الإسلامية على الواقع، بحيث تستوعب الحاضر وتحدد الموقع المناسب للإقلاع من جديد، ضمن الإمكانات المتاحة، انطلاقاً من مرجعية معرفة الوحي. ذلك أن خلود القيم الإسلامية يعني القدرة على الإنتاج في كل زمان ومكان، وتوليد رؤى قادرة على انتشال الإنسان من أزمته، وتخليصه من الانشطار الثقافي.

ولعل من أهم المشكلات التي ما نزال نعاني منها، أن العطاء التربوي في الواقع الإسلامي، إنما جاء في معظمه صدى للرؤى التربوية الغربية، واستنطاق القيم التربوية الإسلامية في المجالات التي طرحتها، سواء في ذلك منهج المقاربة أو المقارنة، بعيداً عن حاجات الأمة الحقيقية.

كما أن معظم الكتابات جاءت في إطار التشخيص وبيان الأمراض.. والقليل القليل جداً، حاول وصف الدواء وبناء سبيل الخروج من الأزمة.

والكتاب قدم مسحاً يتيح للقارئ والباحث بعض النوافذ، التي تمكنه من رؤية المصادر والمراجع، ليكون في صورة الإنتاج التربوي وتحديد المواقع المطلوب ولوجها للوصول إلى المأمول.

موقعنا على الإنترنت : www.islam.gov.qa
طبعة خاصة
جمهورية مصر العربية
الثمن ٣ جنيهات
طبع بمطابع دار أخبار اليوم